

ج ١٠/٩ س ٢٠ الربيعان ١٤٠٦ - تشرين ثاني/كانون أول (نوفمبر/ديسمبر) ١٩٨٥

نعم... ولد ^{عليه السلام} وصفي في مكة المكرمة

لعل المسافة الزمنية .. التي فصلت بين تعليق الأستاذ الجليل حمد الجاسر على مقالي المنشور بمجلة «الدوحة»، عدد ديسمبر ١٩٨٤م، وبين هذا المقال الذي أهدف من ورائه استمرار الحياة لنقاش في حقيقته يهدف إلى تقرير أمر هو من أمور المسلمين جميعاً. وضع حوله خلاف محطى، لا تعيننا أهدافه ومسبباته بالقدر الذي يعيننا أن نضع الموضوع في قمة الحقيقة.

لعل تلك المسافة الزمنية الفاصلة، توجب عليّ - أن أتقدم بالاعتذار لشعوري بحساسية الموضوع ومكانته الجليلة، حيث إنه موضوع يختص بالبلد والموضع الذي ولد فيه ﷺ

وأعترف بأن الفضل في إثارة هذا النقاش يعود أساساً إلى أستاذنا المؤرخ الشيخ حمد الجاسر الذي عرض له في محاضرته التي ألقاها يوم ١٣/٥/١٤٠٢هـ بعنوان (الآثار الإسلامية بمكة المكرمة) وكانت في جامعة أم القرى.

والحقيقة أن هناك اتفاق على الروايات الموثوقة عند العلماء والمؤرخين التي تؤكد

أن رسول الله ﷺ قد ولد في مكة المكرمة، وأنه من أهل مكة المكرمة، وأنه من بني هاشم، قرشي، هاشمي.

ولقد سرّني مقال العالم الجليل المؤرخ، الأستاذ حمد الجاسر، الذي أيد فيه هذا الرأي، وأزال اللبس والغموض الذي وقع عند بعض الكتاب، من أنه - أي الأستاذ حمد الجاسر - ينكر ولادة رسول الله ﷺ، في مكة المكرمة..

ولقد أكد الأستاذ الجليل حمد الجاسر، أنه لم يَنَفَ ولادته ﷺ، في مكة المكرمة، وقال في معرض تعليقه على مقالي المذكور في مجلة «الدوحة» عدد ديسمبر ١٩٨٤م: «ولم أنف ولادته، ﷺ في مكة المكرمة، وورد ذكر عسّافان في كلام مُغلّطاي، من قبيل نقل اختلاف العلماء في الموضوع ولا يلزم منه أنني أقول به أو أصححه، ونقلي القول ليس من لازمه الإعتقاد بصحته». إنتهى كلام الأستاذ حمد الجاسر. وهو هنا يقرر بجلاء ووضوح أن لا خلاف عنده في أن رسول الله ﷺ قد ولد في مكة المكرمة، وأنه إنما نقل تلك النصوص سواء قول الحافظ مُغلّطاي الحنفي (٦٨٩ - ٧٦٢) في كتابه «الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء»، أو قول الشيخ عبدالله العياشي المغربي (١٠٣٧ - ١٠٩٠) صاحب الرحلة المشهورة «ماء الموائد» إنما نقل الأستاذ حمد الجاسر كل ذلك أو تحدث به في محاضراته التي ألقاها في جامعة «أم القرى» يوم الأربعاء ١٣ جمادى الأولى عام ١٤٠٢هـ عن الآثار الإسلامية في مكة المشرفة من قبيل نقل اختلاف العلماء وهذا أمر لا غبار عليه، لأن الأستاذ حمد الجاسر عالم ومؤرخ ومن حقه أن يستعرض الروايات التاريخية ويتعرض لها بالنقد والتحليل، والفحص والتعليق، خصوصاً أنه يتحدث في جامعة، وأمام علماء ومؤرخين، ومن حقهم أيضاً مناقشته ومعارضته بشرط أن يتم الحوار بأسلوب علمي، وعلى أساس موضوعي، يحيطه الخلق وتحرسه القيم، ويهدف إلى الوصول إلى الحقيقة ولعل من استمع إلى تلك المحاضرة كان يتطلع إلى مؤرخنا الجليل أن يقول في نهاية المحاضرة كلمته ترجيحاً لأي الأقوال تستند الحجة، وأيهما سار في الطريق الخطأ ولكن اكتفاء مؤرخنا

بالعرض دون الترجيح، قد أثار حول المحاضرة ما أثير في وقتها من مواضيع، كادت تغطي على هدف الوصول إلى الحقيقة، ومحور الموضوع حول بلد ومكان مولده ﷺ . .

وقد فاتني حضور تلك المحاضرة القيمة التي ألقاها الأستاذ حمد الجاسر، وبالتالي فاتني حضور وسماع ماجرى من نقاش وحوار حول موضوعاتها . . ولكنني قرأتها منشورة بمجلة «العرب» . . واطلعت على بعض الحوار الذي دار حولها، والشبهات التي أثيرت بصورة خاصة حول موضوع مكان وموضع ولادته ﷺ، ولكن اتهاماً صريحاً واضحاً من بعض الكتاب والمعلقين على محاضرة الأستاذ حمد الجاسر أزعجني جداً، فقد أكد أن الأستاذ الجاسر إنما أثار هذه الشبهات بغرض التشكيك في أثر إسلامي هام، وهو مكان مولد رسول الله ﷺ، بل وزاد على ذلك بأن الأستاذ حمد الجاسر لا يعتقد بأن رسول الله ﷺ قد ولد في مكة المكرمة وبذلك يكون قد نفى ولادته ﷺ بمكة المكرمة، وسعى إلى سلب مكة المكرمة شرف مولد النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقد أزعجني هذا الأمر كما ذكرت، خصوصاً وأن الموضوع لا خلاف عليه بين العلماء والمؤرخين، ولادته بمكة المكرمة ثابتة، واقعة بالتواتر، والقرآن الكريم شاهد على ذلك، والأستاذ حمد الجاسر عالم ومؤرخ، أعرفه وأعرف رأيه وبحثه، وحرصه على تقصي الحقائق، ولا أتصور أن ينفي أو يشكك في قضية واضحة كهذه، أو أن يتعرض لجزء من تاريخ وسيرة رسول الله ﷺ بالتشويه أو التشكيك، وقد كانت له كتابات عن مكة المكرمة أقل ما يقال عنها أنها كتابات منصفة وقيمة . .

ولهذا فقد حاولت الاطلاع على أساس المحاضرة، ومن ثم النقاش الذي تم، وسعيت إلى مقابلة الأستاذ الجليل، واجتمعت به مع الأستاذ الأديب الجليل عبد العزيز الرفاعي، والصديق الكريم الشاعر الدكتور عبد العزيز خوجة وكان لقاءاً ممتعاً . .

وجاءت الفرصة مواتية للحديث عن الموضوع وحدثت الأستاذ حمد عن ما أثير حول محاضراته، وقلت له يومها: أنه إن كان هناك وهم أو تردد حول موضع

الولادة، وهل هي في الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج، أو بالدار التي في شُعْبِ بني هاشم. وكما قال الإمام السهيلي (٥٠٨/٥٨١) في كتاب «الروض الأنف». وكما أورده الأستاذ حمد الجاسر: «ولد بالدار التي عند الصفا، وكانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجت».. وذكر كذلك ما أورده تقي الدين الفاسي من نفس النص السابق حيث استغربه وقال: (مولد النبي ﷺ بسوق الليل وهو مشهور).

قلت يومها للأستاذ الجاسر: إن كان هناك اختلاف على الموضع، فلا خلاف في أمر ولادته بمكة المكرمة على أي حال، ولم يدهشني موافقته على ذلك، فقد اطلعت على رأيه المنشور، ولكنني سعدت بسماع تأكيد على ذلك، مما لم يدع مجالاً للشك عندي أنه قد فهمَ حَدِيثُهُ من المحاضرة على غير ما أراد وقد يكون مردُّ ذلك إلى حساسية الموضوع ودقته وأن الأستاذ حمد الجاسر عندما أورد تلك النصوص صدمت بعض الحاضرين لغرابتها وشذوذها، وتوهموا أنها من كلام الأستاذ حمد الجاسر وربما ظنوا أنه موافق عليها وهو يقول صراحة، أنه إنما نقل ذلك الكلام من حديث مُغَلَّطٍ من قبيل نقل اختلاف الأقوال، ولا يلزم ذلك ولا يعني أنه يقول به أو يؤيده أو يصححه أو حتى يعتقده بصحته..

وما دمنا قد اتفقنا على الجزء الأول من البحث، وأنه ﷺ من مواليد مكة المكرمة فلننتقل إلى الجزء الثاني وهو تحديد موضع ولادته، ﷺ وفق ما ورد من روايات وأخبار دقيقة.

ومن المناسب أن لا ندع باب نقاش كهذا. يُقْفَلُ في وجه الوصول إلى معرفة أي الموضع على وجه التحديد هو الموضع الذي تمت فيه ولادته ﷺ من مكة.

وبالمقدار الذي استطعنا به أن نَرُدَّ قول القائلين بأن ولادته ﷺ لم تكن في مكة المكرمة فإنني سأحاول بالمقدار نفسه أن أضع أمام مؤرخنا صورة تقرر موضع المولد الشريف في مكة، معتمداً في ذلك على ما بين يدي من أقدم ما كتب في تاريخ مكة المكرمة، وأعتقد أنها هي الصورة الحقيقية التي تبقى إلى أن تظهر حقيقة أخرى

أقدم منها، أو يظهر أثرٌ يقرر عكس ما قررته تلك الصورة.

ولقد حاولت أن أضع مقالي هذا على قسمين القسم الأول منه بعد هذه المقدمة يتحدث عن ولادته في مكة المكرمة، حتى يكون هذا المقال قد حمل موضوعاً متكاملًا رغم أنه سبق الفصل فيه في السابق. على أني أعترف لمؤرخنا بقصر خطواتي في هذا المجال أمام خطواته الواسعة.

لذلك فإنه من حقنا عليه أن نستزيد من بحوثه، وسعة معلوماته، لا سيما وأنه قد قرر في محاضراته - التي هي موضع البحث - أنه من محبي الآثار والباحثين عنها والمحققين فيها، وهذا الأثر الذي هو موضع نقاشنا وبحثنا من أعظم الآثار الإسلامية، ولعل الخطوة الأولى هي أن نحدد أقدم من ألف في تاريخ مكة وهم كالتالي:

- (١) محمد بن عمر الواقدي - المتوفي سنة ٢٠٧هـ
- (٢) علي بن محمد المدائني - المتوفي سنة ٢٢٥هـ
- (٣) أبو الوليد الأزرقى - المتوفي سنة ٢٥٠هـ
- (٤) الزبير بن بكار - المتوفي سنة ٢٥٦هـ
- (٥) عمر بن شبة - المتوفي سنة ٢٦٢هـ
- (٦) محمد بن إسحاق الفاكهي - المتوفي سنة ٢٨٠هـ

ومعروف أيضاً أنه لم يبق في التداول بين الناس سوى كتاب الأزرقى «أخبار مكة» كما توجد نسخة من كتاب الفاكهي في إحدى خزائن أوروبا.

فالعمدة في تاريخ مكة إذن هو كتاب الأزرقى «أخبار مكة» وهو موضوع في القرن الثالث الهجري، ومعنى هذا أنه أقرب صلة بالعهود التي سبقت، كما أن الرجل مكّي يروي عن جده المكّي فمعلوماته إذن أدق وأوثق من أي تاريخ .. إلا أن تظهر آثار من تلك العهود تقرر غير ما قرره الأزرقى.

إعتادنا إذن في موضوع البحث يكون على كتاب الأزرقى «أخبار مكة».

نأخذ الصورة الجغرافية التي رسمها الأزرقى في كتابه، والتي أضاف إليها الأستاذ أحمد السباعي رحمه الله شيئاً من الإيضاح في كتابه «تاريخ مكة» يقول الأستاذ السباعي رحمه الله ص ٣٠ الطبعة الرابعة: (لتوضيح ذلك في الأذهان نستطيع أن نجعل من باب بني شيبة نقطة ابتداء لتخطيطاتهم، فقد كان موضع ارتكاز الحركة العمرانية في أم القرى، كما كان أهم مداخل المسجد الحرام، وكانت البيوت تتكاثف حوله متجهة في الشرق إلى حصوة باب علي، وفي الشمال قليلاً إلى حصوة باب السلام، تنزلها بطون من غساسنة الشام وبعض السفينيين، وتتخللها متاجر للعطارين.

فإذا مضى بنا الخط مستقيماً إلى جهة باب النبي واجهنا بيت العباس ودار جُبَيْر بن مطعم، ودورا لبني عامر بن لؤي واستقام أمامنا زقاق أصحاب الشيرق، وهو إلى جانب زقاق الحجر، حيث تقوم دار لابن علقمة ودور أخرى لآل عدي من ثقيف.

فإذا نفذنا من ذلك إلى شارعنا العام في القشاشية متوجهين إلى أعلى مكة استقام أمامنا سوق كانوا يسمونه سوق الفاكهة، ثم سوق الرطب، ثم رِبَاع كانت لبعض بني عامر - وعند سوق الليل تصافحنا الدار التي كانوا يسمونها دار مال الله، وبالقرب من الدار يلتوي شعب ابن يوسف وهو ما نسميه اليوم شِعْبَ علي، وفيه دور عبد المطلب بن هاشم ودور أخرى لأبي طالب وأخرى للعباس بن عبد المطلب.

وإذا عُذْنَا إلى استقامتنا في شارعنا العام يصافحنا دار العاص في فوهة شعب بني عامر، ثم يلتوي شعب بني عامر في دروب متعددة.

إلى هذه النقطة هو الحد الذي يهمننا. وأخذناه موضحاً من تاريخ الأستاذ السباعي رحمه الله وقد أخذه من تاريخ الأزرقى وأحال إلى صفحات الجزء الثاني الصفحات ١٨٧ إلى ٢١٤ من هنا وجب علينا:

أولاً:

أن نعود الآن إلى كتاب الأزرقى - الجزء الثاني صفحة ٢٣٣ - ونقف أمام رباى قريش وحلفائها.

يقول للأزرقى : أولها رباى بنى عبد المطلب بن هاشم - قال أبو الوليد : «الدار التى صارت لابن سليم الأزرق وهى إلى جانب دار بنى مررب صارت لاسماعيل بن ابراهيم الحجبى ، وهى قبالة دار حويطب بن عبد العزى إلى منتهى دار ابراهيم بن محمد بن طلحة ابن عبدالله (فلولده الحارث بن عبد المطلب أول ذلك الحق - يعنى الملك - وهى الدار التى اشتراها ابن أبى الكلوح البصرى والحق الذى يليه (يعنى الملك) هو الشعب شعب ابن يوسف (المسمى حالياً شعب على) وبعض دار ابن يوسف لأبى طالب - والحق الذى يليه (يعنى الملك) وبعض دار ابن يوسف المولد مولد النبى ﷺ وما حوله لأبى النبى ﷺ عبدالله بن عبد المطلب - والحق الذى يليه (يعنى الملك) حق العباس بن عبد المطلب (وهى دار خالصة - مولاة الخيزران -) ثم حق المقوم بن عبد المطلب (وهى دار - الطلوب - مولاة زبيدة) ثم حق أبى هلب وهى دار أبى يزيد اللهبى - فهذا آخر حقهم فى هذا الموضع.

وللعباس بن عبد المطلب أيضاً الدار التى بين الصفا والمروة التى بيد ولد موسى بن عيسى التى إلى جانب الدار التى بيد جعفر بن سليمان ، ودار العباس هى الدار المنقوشة التى عندها العَلَم الذى يَسْعَى منه من جاء من المروة إلى الصفا - ويزعمون أنها كانت لهاشم بن عبد مناف - ولهم أيضاً دار أم هانئ بنت أبى طالب التى كانت عند الحناطين عند المنارة ، فدخلت فى المسجد الحرام حين وسعه المهدي - الهدم الآخر سنة سبع وستين ومائة.

ثانياً:

نعود إلى الصفحة (١٠٩ ج ٢) - «أخبار مكة» للأزرقى - تحقيق رشدي الصالح ملحق الطبعة الثانية - نجد:

قال أبو محمد اسحاق بن أحمد بن اسحاق بن نافع الخزاعي : (فكانت دار الندوة على ما ذكره الأزرقى في كتابه - لاصقة بالمسجد الحرام في الوجه الشامي من الكعبة وهي دار قصي بن كلاب، وكانت قريش لتبركها بأمر قصي تجتمع فيها للمشورة في الجاهلية ولإبرام الأمور وبذلك سميت دار الندوة للاجتماع الذي فيها.

ثم كانت الندوة بعد هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار - ثم إلى ابنه عمير أبي مصعب بن عمير وعامر ابني هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، ثم ابتاعها معاوية بن أبي سفيان في خلافته من ابن الرهين العبدري، وهو من ولد عامر بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار، فطلب شيبة بن عثمان الشُّفَعَة فيها من معاوية فأبى عليه، فعمرها معاوية، وكان ينزل فيها إذا حج، وينزلها من بعده الخلفاء من بني أمية إذا حجوا - وقد دخل بعضها في المسجد الحرام في زيادة عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وسليمان ثم دخل بعضها أيضاً في زيادة أبي جعفر المنصور في المسجد.

وكان خلفاء بني العباس ينزلونها بعد ذلك إذا حجوا - فنزلها أبو العباس وأبو جعفر والمهدي وموسى والهادي وهارون الرشيد إلى أن ابتاع هارون الرشيد دار الأمانة من بني خلف الخزاعيين وبناها.

ثم خربت دار الندوة وتهدمت - يقول أبو محمد الخزاعي : (رأيتها على أحوال شتى، كانت مقاصيرها التي للنساء تُكرى من الغرباء والمجاورين، ويكون في مقصورة الرجال دواب عمال مكة، ثم كانت بعد ينزلها عبيد العمال بمكة من السودان وغيرهم، ثم كانت تُلقى فيها القمام، ويتوضأ فيها الحاج وصارت ضرراً على المسجد الحرام وفي سنة ٢٨١ كتبوا إلى أمير المؤمنين أبي العباس المعتضد بالله أبي ابن أحمد الناصر لدين الله ابن جعفر المتوكل على الله بأحوال دار الندوة والمسجد الحرام، فأمر كاتبه عبيد الله بن سليمان بن وهب وغلّامه بعمل ما رفع إليه من عمل الكعبة والمسجد الكبير وبعمارة دار الندوة مسجداً يوصل بالمسجد الكبير.

فأمر بذلك القاضي ببغداد يوسف ابن يعقوب وحمل المال إليه — فقدم عبدالله بن يوسف في وقت الحج، وقدم معه برجل يقال له أبو الهياج عمير بن حيان الأسدي من بني أسد بن خزيمه، فوكله بالعمل، ثم أخرج القوائم من دار الندوة وهدمت، ثم أنشئت من أساسها فجعلت مسجداً بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المذهب، ثم فتح لها في جدار المسجد الكبير اثنا عشر باباً.

قال أبو الحسن الخزاعي: (قد كان هذا الجدار معمولاً على ما ذكره عم أبي محمد الخزاعي إلى أيام الخليفة جعفر المقتدر بالله ثم غيره القاضي محمد بن موسى حتى صار من في دار الندوة من مصل أو غيره يستقبل الكعبة فيراها كلها — عمل ذلك في سنة ٣٠٦).

ثالثاً:

نرجع إلى الصفحة التاسعة والستين من كتاب الأزرقى حيث نبحت في زيادة ابن الزبير في المسجد الحرام فنجد أن الأزرقى يتحدث في صفحة (٧٠) فيقول: (ثم رد جدار المسجد منحدر على وجه دار الندوة وهي يومئذ داخله في المسجد الحرام، وبابها وسط الصحن أشار جدي إلى موضع يكون بينه وبين موضع الصف الأول، فضرب جدي برجله في هذا الموضع فقال: (كان ها هنا باب دار الندوة، فلم يزل باب دار الندوة في موضعه هذا حتى زاد أبو جعفر أمير المؤمنين في المسجد فأخره. إلى ما هو عليه اليوم — قال جدي: لم أسمع أحداً ممن سألت من مشيخة أهل مكة وأهل العلم يذكرون غير ذلك).

رابعاً:

نقف عند الصفحة ١٩٩ ج ٢ من كتاب الأزرقى لنبحث منزل خديجة بنت خويلد وهو البيت الذي كان يسكنه رسول الله ﷺ وخديجة رضي الله عنها — وَلَدَتْ فِيهِ خَدِيجَةُ أَوْلَادَهَا جَمِيعاً، وتوفيت فيه، وسكنه النبي ﷺ حتى هاجر، فأخذه عقيل ابن أبي طالب ثم اشتراه منه معاوية — وهو خليفة — فجعله مسجداً يُصَلَّى فِيهِ، وبناه بناءه هذا، وحدوده الحدود التي كانت لبيت خديجة لم تغير فيما

ذكر عمن يوثق به من المكيين، وفتح معاوية فيه باباً من دار أبي سفيان بن حرب هو قائم إلى اليوم، وهي الدار التي قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وهي الدار التي يقال لها اليوم دار ربطة بنت أبي العباس أمير المؤمنين.

(وفي هامش الصفحة قال الأزرقى: «يسمى الزقاق الذي فيه هذه الدار زقاق العطارين أما اليوم فيسمى زقاق الحجر ويقال لهذه الدار دار فاطمة الزهراء رضي الله عنها).

الحصيلة التي نخرج بها:

أولاً: أثبتنا من وقوفنا أمام رباع بني عبد المطلب بن هاشم أن دار عبد الله بن عبد المطلب كانت في ذلك الرباع وإلى جوارها دار أبي طالب ثم دار العباس ثم دار المقوم بن عبد المطلب ثم دار أبي لهب.

ثانياً: استعرضنا دور كل بني عبد المطلب فلم نجد لهم غير الدار التي للعباس بين الصفا والمروة ثم دار أم هانئ بنت أبي طالب التي دخلت في توسعة المسجد الحرام زمن المهدي سنة ١٦٧ ثم دار الندوة التي بناها قصي بن كلاب، ووصلت إلى هاشم بن عبد مناف ثم إلى ابنه عمير وعامر، ثم ابتاعها معاوية من ابن الرهين العبدي وهو من ولد عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، ثم ظلت لخلفاء بني أمية، ثم خلفاء بني العباس حتى بني هارون الرشيد داراً فخربت دار الندوة، ثم عمرها أبو العباس المعتضد، بالله، وكان الذي قام بالإشراف على تعميرها القاضي ببغداد يوسف ابن يعقوب.

ثالثاً: من هذا يتضح لنا أن البيت الذي ولد فيه رسول الله ﷺ هو بيت والده عبد الله بن عبد المطلب، وهو البيت الذي في رباع بني عبد المطلب، فليس معقولاً أن يولد في دار الندوة لأنها ليست دار أبيه ولأنها دار لإبرام الأمور، وليس معقولاً أن يولد في بيت العباس ما بين المروة والصفا ولا في بيت أم هانئ ولا في بيت خديجة بنت خويلد القريبة من ردم عمر.

رابعاً: من هذا أيضاً يتضح أن الذي اشترى بيت أبي طالب وبيت عبدالله بن عبد المطلب هو محمد ابن يوسف أخو الحجاج بن يوسف الثقفي وبني عليها داراً. أما الذي أشرف على تعمير دار الندوة في خلافة المعتضد بالله هو القاضي يوسف ابن يعقوب وفرق بين الاثنين.

خامساً: من الواضح أن العَدَاء الذي كان في نفوس الأمويين وولاتهم وخاصة الحجاج كان يقتضي أن يزال ما يمكن من التفاف الناس حول الهاشميين لذلك كان لا بد من شراء دار المولد وبناء دار عليها لأخي الحجاج حتى يُمَحَى بمرور الأزمان أثر مهم من آثار بني هاشم. يدل على هذا أنه عندما جاءت دولة العباسيين عمدت الخيزران أم الخلفيتين موسى وهارون إلى شراء الدار وجعلتها مسجداً يُصَلَّى فيه، وأخرجت مكان المولد، وأشرعته في الزقاق الذي من أصل تلك الدار يقال له زقاق المولد.

سادساً: إذا أضيف إلى هذا الإثبات تواتر الأجيال جيلاً بعد جيل، وهم يشيرون إلى هذا الموضع بأنه هو المولد النبوي فإنها إضافة إلى الإثبات لم تأت من فراغ وإنما جاءت من يقين.

وخلاصة القول أنه إذا لا خلاف إطلاقاً على أنه ﷺ من أهل مكة، وأنه قد ولد بمكة المكرمة، وأبوه من أهل مكة، وأمه من أهل مكة، وعشيرته من بني هاشم وقبيلته قريش. وهذا رب العزة والجلال يقول في محكم التنزيل: ﴿وَكَايَنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكِنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

والقرية المقصودة في الآية الأولى هي مكة المكرمة وقد أضيفت إلى النبي ﷺ، وإضافتها إلى النبي تؤكد أنها مكان ولادته لأن العرف ما جرى على أن تنسب قرية إلى إنسان لم يُولد بها.

وفي الآية الثانية: المعاد هو المكان الذي بشره الله بأنه سوف يعود، ويرده الله

إليه، وقد كان ﷺ شديدَ التعلق بمكة المكرمة، وتآلم لفراقها كثيراً، وقد ورد في أسباب النزول أن جبريل عليه السلام سأل رسول الله ﷺ: «اشتقت إلى بلدك ومولدك؟» فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم» فنزلت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

أما عن الشعب الذي قصدته وتحدثت عنه في مقالي المنشور في مجلة «الدوحة» فهو شعب بني هاشم الذي عرف فيما بعد بشعب علي، وهو مكان معروف حتى اليوم في مكة المكرمة، وليس شعب عامر كما ورد خطأ في المقال وصححه الأستاذ حمد الجاسر.

والمكان والموضع المعروف الآن في مكة المكرمة بمكان المولد هو مكان ثبت بالتواتر، وهو في أول شعب علي، وفي مكان المكتبة المعروفة الآن بمكتبة القطان التي بناها الشيخ عباس قطان في نفس مكان المولد المعروف، وهو مكان الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج وقول الإمام السهيلي: (ولد بالشعب وقيل بالدار التي عند الصفا) يؤكد هذا الكلام. لأن الدار تقع في أول شعب عند بداية الشعب ومُطَلَّة على الصفا وهي أيضاً قرب منطقة سوق الليل التي تحدث عنها تقي الدين الفاسي عندما استغرب قول الإمام السهيلي فقال: (مولد النبي ﷺ بسوق الليل وهو مشهور) فالدار في أسفل الشعب، بل في أوله فيما بقي منه الآن أي ما بقي من أسفل الوادي، وهي في منطقة سوق الليل، وعلى مقربة من الصفا، ولا يستبعد أن بعضهم نسبها إلى شعب بني هاشم لأنها في أسفلهم وبعضهم نسبها إلى الصفا لقربها منه، وكلام تقي الدين الفاسي ينطبق على ذلك، لأنها في منطقة سوق الليل، أو على مقربة منها.

والحقيقة أنني قد استغربت كثيراً رأي الشيخ العياشي المغربي صاحب رحلة «ماء الموائد» والذي قال فيه ما نصه نقلاً عن محاضرة الأستاذ حمد الجاسر. (وقد عُلِمَ من كتب السيرة ما وقع من الاختلاف في مولده ﷺ . . والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة، سيما مع عدم تعلق غرض لهم

بذلك . . وبعد مجيء الإسلام فقد عُلِمَ من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقيد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي . . لصرف اعتنائهم لما هو أهم من حفظ الشريعة) إلى آخر ما ذكر.

وهنا الكلام مستغرب، لأن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا شديدي التعلق بآثار رسول الله ﷺ.

وهذا ابن عمر رضي الله عنه وكان من أشد المتبعين لآثاره ﷺ وقد روى عن نافع بن عمر رضي الله عنهما، كان يتبع آثار رسول الله ﷺ . . في كل مكان صلى فيه، حتى أن النبي ﷺ نزل تحت شجرة، وكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء كي لا تيبس. («أسد الغابة» ج ٣ ص ٣٤ «سير النبلاء» ج ٣ ص ٢١٣).

عن ابن وهب، عن مالك عن حدثه، أن ابن عمر كان يتبع أمر رسول الله ﷺ وآثاره، وحاله ويهتم به.

عن عاصم الأحول عمرة قال: كان ابن عمر إذا رآه أحد قال كأن به شيئاً من شدة اتباعه آثار النبي ﷺ «طبقات ابن سعد» ج ٤ ص ١٤٤.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان أحد يتبع آثار النبي ﷺ في منزله كما كان يتبعه ابن عمر.

قال الزبير بن بكار: (وكان ابن عمر يتبع آثار رسول الله ﷺ في كل مسجد صلى فيه، وكان يعترض براجلته في كل طريق مر بها رسول الله ﷺ، فيقال له في ذلك، فيقول: (أُحَرِّى أَنْ تَقَعَ أَخْفَافٌ رَاحِلَتِي عَلَى بَعْضِ أَخْفَافِ رَاحِلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)). «تاريخ بغداد» ج ١ ص ١٧٢).

عن أنس رضي الله عنه: (قال رجل من الأنصار: «يا رسول الله إني رجل ضخم لا أستطيع أن أصلي معك»، وصنع له طعاماً ودعاه إلى بيته وقال «فصل حتى أراك كيف تصلي فأقتدي بك» فنضحوا له طرف حصير كان لهم فقام عليه

السلام فصلی رکعتین) (البخاري وأبو داود ج ١ ص ٤٣٠).

ومعنى الحديث أنه أراد أن يتخذ مكاناً يصلي فيه الرسول صلى له في البيت لعدم استطاعته حضور المسجد معه لبدانته.

كان ابن عمر رضي الله عنهما يتبع آثار النبي ﷺ في كل مسجد صلى فيه وكان يقف في الموقف الذي وقف به «الإصابة» ج ٢ ص ٣٤٠.

فكيف بعد هذا يمكن القول بأن الصحابة لم يهتموا بتتبع آثار النبي ﷺ . . . وهناك نقطة على جانب من الأهمية . . . وهي أن ما ذكره العياشي من أن الصحابة رضوان الله عليهم قد انشغلوا بتدوين السيرة عن تتبع آثار رسول الله ﷺ ومكان ولادته ونشأته . . . هذا الكلام مردود عليه من ناحية:

أولاً: إن تدوين السيرة لم يتم في مكة المكرمة . . . وإنما بعد هجرته ﷺ واستقراره في المدينة المنورة فكيف يكونون قد انشغلوا عن ذلك . . . ومعظمهم ملتصق برسول الله ﷺ، متتبع لآثاره؟

ثانياً: إن الذين حضروا ولادته وحضارته ﷺ مثل حليلة السعدية والشفاء رضي الله عنهما تعرف مكان ولادته ومسقط رأسه وقد قالت في حديثها المشهور: إنها حضرت الولادة، وأنها رأت نُوراً يسطع في جميع جهات الدنيا . . . والملائكة ترد على رسول الله ﷺ فتقول . . . رحمك الله أو رحمك ربك.

فإذن الشفاء رضي الله عنها حضرت الولادة وعاشت وأسلمت فكيف لا يكون هناك من يعرف مكان ولادته . . . ثم إن هناك الكثيرين ممن حضروا فترة ولادته عليه السلام وعاشوا بعد ذلك . . . بعد بعثته ﷺ . . . وكانوا يعرفون أمه وأباه وعشيرته . . . ومكان ولادته . . . ومكان نشأته ومكان رعيه للأغنام فبعد أن بعثه الله عز وجل نبياً ورسولاً زاد تعلقهم بتلك الأماكن التي كان يغشاها رسول الله عليه الصلاة والسلام أو التي ولد فيها.

وخلاصة القول: أن رسول الله ﷺ ولد بمكة المكرمة، وأن ولادته كانت في ←

كشف الحجب والستور عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور

- ٢ -

وهذه هي الرسالة:
أصل النسخة المخطوطة محفوظة في مكتبة (جستريتي)، ويظهر أنها في مجموع يحوي ثلاثة كتب، هي الأول منها.
والثاني: «حوادث تاريخ دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٧٦».
والثالث: (تاريخ ذيل حديقة وزراء بغداد للمهذب سعيد السويدي).
وقد كتب تحت اسم الرسالة التي الكلام بصددتها جملة: (بخط مؤلفه) وكذا ذيل حديقة وزراء بغداد. وإذا صح أن الرسالة بخط المؤلف فيظهر أنه دفعها إلى خطاط قام بتجميل الصفحات الأولى بوضعها بين خطوط مستطيلة، يظهر أنها مذهبة في العشر الورقات الأولى، كما وضع زخرفة في الصفحة الأولى، ونقطة في نهاية الجمل.

وخط النسخة حسن بالقلم النسخي، وتقع في ثلاث وعشرين ورقة عن ست وأربعين صفحة، في الصفحة الأولى ما نصه: (كشف الحجب والستور، عما وقع

→ شعب بني هاشم المعروف الآن بشعب علي، وفي الدار التي عند أسفل الشعب على مقربة من الصفا، وهي الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج والمعروفة الآن في مكة المكرمة بمكتبة الشيخ عباس قطان بسوق الليل وهذا أمر تلقته الأجيال جيلاً بعد جيل. والله سبحانه وتعالى أعلم وبالله التوفيق..

الدكتور محمد عبده يماني

كشف الحجب والستور عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور

- ٢ -

وهذه هي الرسالة:
أصل النسخة المخطوطة محفوظة في مكتبة (جستريتي)، ويظهر أنها في مجموع يحوي ثلاثة كتب، هي الأول منها.
والثاني: «حوادث تاريخ دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٧٦».
والثالث: (تاريخ ذيل حديقة وزراء بغداد للمهذب سعيد السويدي).
وقد كتب تحت اسم الرسالة التي الكلام بصددتها جملة: (بخط مؤلفه) وكذا ذيل حديقة وزراء بغداد. وإذا صح أن الرسالة بخط المؤلف فيظهر أنه دفعها إلى خطاط قام بتجميل الصفحات الأولى بوضعها بين خطوط مستطيلة، يظهر أنها مذهبة في العشر الورقات الأولى، كما وضع زخرفة في الصفحة الأولى، ونقطة في نهاية الجمل.

وخط النسخة حسن بالقلم النسخي، وتقع في ثلاث وعشرين ورقة عن ست وأربعين صفحة، في الصفحة الأولى ما نصه: (كشف الحجب والستور، عما وقع

→ شعب بني هاشم المعروف الآن بشعب علي، وفي الدار التي عند أسفل الشعب على مقربة من الصفا، وهي الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخيه الحجاج والمعروفة الآن في مكة المكرمة بمكتبة الشيخ عباس قطان بسوق الليل وهذا أمر تلقته الأجيال جيلاً بعد جيل. والله سبحانه وتعالى أعلم وبالله التوفيق..

الدكتور محمد عبده يماني

لأهل المدينة مع أمير مكة سرور، تأليف الفقير، المعترف بالتقصير، الراجي عفو ربه الكريم المنجي، السيد زين العابدين ابن السيد محمد البرزنجي، لطف الله به) وفي الصفحة الأخيرة: (وكان الفراغ من تبويضها ليلة الجمعة ٩ من محرم الحرام افتتاح سنة ألف ومائة وخمسة وتسعين من هجرة سيد المراسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين).

وليس في النسخة من الإشارات كتغيير بعض الكلمات، أو إضافة بعضها، أو التصحيح، ما يفهم منه أن النسخة بخط المؤلف. (الصفحتان الأوليان من أصل الرسالة في الصفحة المقابلة).

(الصفحتان الأخيرتان من أصل الرسالة في ص ٥٩٤).

وقد تكون النسخة قدمها المؤلف لأمر الحاج الشامي محمد باشا، ويستأنس لهذا من إضافة الرسالة المتعلقة بتاريخ دمشق إليها.

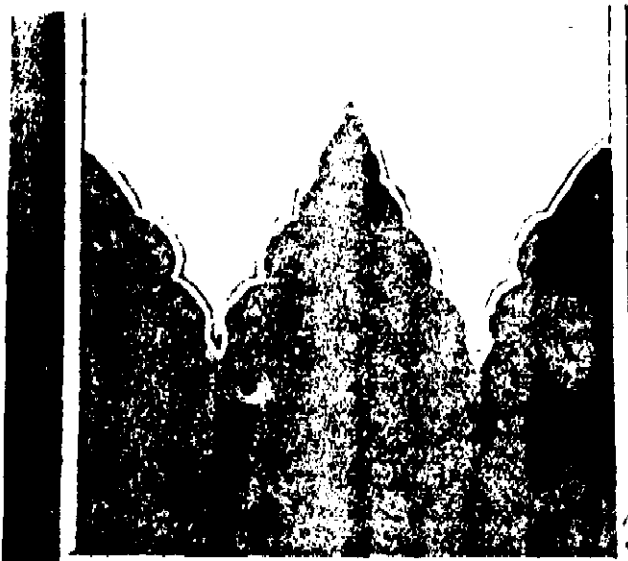
وقد اكتفيت بعرض صور أربع صفحات منها عن الاسترسال بالإطالة في وصف المخطوطة، ولم أرد إثقال القارئ بكثرة الحواشي والتعليقات، بل اكتفيت بمحاولة تقديم الرسالة بنصها، مع إشارات موجزة إلى ما يحتاج إلى تعليق مما ورد فيها.

وهناك ملاحظات يجب أن لا تغيب عن ذهن القارئ، منها ما يتعلق بأسلوب الرسالة:

١ - يكثر فيها اللحن، لأن المؤلف التزم السجع، وكثيراً ما يحمله هذا على عدم التقييد بقواعد الإعراب، وقد اكتفيت بالإشارة إلى بعض الكلمات التي لم تُعَرَّب بوضع علامة الاستفهام بجوارها (?).

٢ - في الرسالة كثير من الكلمات العامية، أوردتها على علّاتها، ومنها ما لم يتضح لي صوابه.

٣ - وقع في المخطوط طمس بعض الكلمات، مما لم تتضح لي قراءته، فوضعت



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 من جعل القضاة أظهرة طامعاً للبصيرة والبصيرة
 حجة وحده انضج ما نطق به القضاة ومن يهدي الله
 فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي ومن شكر لم يزد
 الحسد والكبر والرياء والتفان وقام بحقوق امانه واطاع
 الملك للملاقاة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له
 شهادة خالصة من الزندقه والفرقة والمروق والبعي
 والعناد ان يهدى ما نطق به اعبده ورسوله منذ كانت
 للبائنة المنزلة عليه ان تركت الجهاد القائل الجهاد الكرام

عند جميع صهارهم لن ترلعوا لن تراعي في ديار جبر الاطام
 والقائل اطهار المقاهم الاسماء من اهل المدينة بسواديه
 الله كما يدوب الملح في الماء والقائل منها الميت والحي من احيا
 اهل المدينة فكانا اخاف ما بين جنبي الله من سلم عليه
 من تنفس مع اقباله بالفرج من كل مكروب ومن خرج من
 بعد ومن عازع الدواهي والخطوب وعلى اله الطيبين ارباب
 النعم والكرم الموفون بعهده الله اذا عاهدوا بالجهاد والاسرار
 من النجاة وكواكب الناس ومعدن الاسرار واصحاب الكثرة
 الامارة الكل بالخيار عاين ابراهيم ما دانت السموات
 مع الارضين واتي مع العسر اليسر ومع الشدة الفرج والفتح
 المبين ونجا في هذا المنثور من فعل امير مكة سروره فيج
 ما فعله بجيران سيد الانام عليه افضل الصلوة وازكي
 السلام من الغدر والقتل والنهب والمك برحابة
 بعد الله امنهم وعاهدكم بالجنة بين يدي علي جنبه وذو
 مصداق القول الشفيع الذي لم يجعل الله في حكمه طيش

جن يهتم المير بما يصبروا انهم هم الفايرون قد بوا عن الانبياء
 باروا احكمه في عند وكروروا حكمه قد ورو في الجبر عن صاحب
 هذا العبر الاعظم صلى الله عليه وسلم انه قال من قلد دون
 ماله وروحه فهو شهيد جعلني الله واياكم من اهل التوحيد
 ان احسن الكلام واهين المظالم كل كلام يصح الملائك
 العلامه واهه سبحانه وتعالى يقول على لسان سيد الانام
 ويقول له يهدى المؤمنين واذا قرأ القرآن فاستمعوا
 له وانصتوا العلكم من حون اعوذ بالله من الشيطان
 الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم يا ايها الذين آمنوا اصبروا
 وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون يا ايها الذين آمنوا
 في القرآن العظيم ونفخ في اياكم بالابان والذكر المكي
 وآمركم عباده الله بما امر الله به من حسن الطاعة فاطيعوا
 وانهاكم واياي عن ما نهى الله عنه من بيع المعصية فانفوا
 الله ولا تنصروا واستغفروا الله العظيم وكلموا الوالك
 ولولا انكم ولجميع اخواننا في الاسلام واستغفروا الله

حسن الختام

حسن الختام وهذا آخر ما تبين جمعه من هذه الرسالة مع
 غاية من الاختصار في المقالة لفضيق الوقت وخشية الطول
 ومستند بها ان شاء الله بما يصدر في العامه من الامور التي
 يشاهد عالمها الخاص والعام والمرجو من بقاء عليها ان يظفر
 بعين القبول والانصاف اليها فان رأى خلاصه بقله
 او لا يستمر بذل كرمه قد قيل من صنف قد استنفذ
 ومن انصف قد اسعد وعلى كل حال قد اجاب الشارحين قال
 كونه مجهدا وليس يخلو من فلف
 قل من قد لا سني من في الله ما ساقط
 والله الموفق للصواب واليه المرجع والمآب وكان
 الفراغ من تبسيطها ليلة الجمعة من محرم الحرام
 اقلح سنة الف وسمائة وخمسة
 وتسعين من الهجرة سيد المرسلين
 صلى الله عليه وعلى
 وصحبه اجمعين
 والحمد لله
 العالمين

مكانها نقطاً (. . .) وهي كلمات قليلة .

وأهمُّ من كل ما تقدم : ورود عباراتٍ لا تستساغ شرعاً بالنسبة إلى جناب المصطفى — عليه أفضل الصلاة والتسليم ، — من التعليق به والاستجارة ، ودعائه وغير ذلك من الأمور التي هي من أنواع العبادة ، مما لا يجوز صرفه إلا لله وحده ، ونحمد الله تعالى أن مثل هذه الأمور أصبحت لا تخفى على كل منصف ، ولهذا لم أرَ ما يدعو إلى التعليق على الجمل الواردة من المؤلف من هذا القبيل ، إذ هي مما يدركه القارئ ، ويدرك مجانفته للحق متى أراد سلوك النهج السوي ، سالكاً سبيل الإنصاف ، نائياً ما استطاع عن متابعة الهوى ﴿ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾ .

وها هو نص الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم : سبحان من جعل القضاء والقدر طامساً للبصيرة والبصر ، أحمده وحده أفصح ما نطقت به العباد ، ومن يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلِّلْ فما لَهُ من هادٍ ، وأشكره شكر من سلم من الحسد والكبر والرياء والنفاق ، وقام بحقوق إمامه وأطاع الملك الخلاق ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة خالصة من الزندقة والفرعنة والمروق والبغي والعناد ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله مُدِلُّ الجبابرة المنزل عليه : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ القائل لجيرانه الكرام عند ضجيج صارخهم : «لَنْ تُرَاعُوا ، لَنْ تُرَاعُوا» في دياجير الظلام ، والقائل إظهاراً لمقامهم الأسمى ، «من أراد أهل المدينة بسوءٍ أذَّابُهُ الله كما يذوب الملح في الماء» ، والقائل مُنَبِّهاً للميمت والحي : «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَكَأَنَّمَا أَخَافَ مَا بَيْنَ جَنْبَيْ»^(١) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ تَنَفَّسَ صُبْحُ إِقْبَالِهِ بِالْفَرَجِ عَنْ كُلِّ مَكْرُوبٍ ، وَزَحْزَحَ طَالِعُ قُدُومِهِ زَعَارِعَ الدَّوَاهِي وَالْخَطُوبِ ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ أَرْبَابِ الْحِلْمِ وَالْكَرَمِ ، الْمُؤَفِّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدُوا بِالْجَهْرِ وَالْأَسْرَارِ ، سَفَنَ النِّجَاةِ وَكَوَاكِبِ الْأَمْنِ وَمَعْدِنِ الْأَسْرَارِ ، وَأَصْحَابِهِ الْوَرِثَةِ الْأَبْرَارِ ، الْكُمَّلِ الْأَخْيَارِ ، صَلَاةً وَسَلَاماً دَائِمِينَ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ مَعَ الْأَرْضِينَ ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، وَمَعَ الشَّدَةِ الْفَرَجَ وَالْفَتْحَ الْمُبِينَ .

وبعد: فهذا المنشور من فعل أمير مكة سُورور، وقبيح ما فعله بجيران سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، من الغدر والقتل والنهب والمسك برحابه، بعد أن أمنتهم وعاهدتهم بالحُجْرة بين يَدَيَّ عَلِيٍّ جنابه، وذلك مُصْداقاً لقول الشفيع الذي لم يجعل الله في حكمه طيش، حيث قال: «يكون هلاك أمتي على يَدِ أَعْيَلَمَةٍ من قُرَيْشٍ»، وحيث قال رسول رب العز والسّموات: «ليُخْرِجَنَّ أَهْلَ المَدِينَةِ منها أَعْمَر ما كانت نصفاً رطباً»، قيل: من يخرجهم، قال: «أمرأءُ السوء»، وحيث قال ﷺ: «إن من أشراط الساعة إذا ساد القبيلة فاسِقُهُم، وكان زعيم القوم أَرذَلُهُم، وأَكْرَمَ الرجل مخافة شرِّه لا للطاعة، وحيث قال سيدكم، ورجاؤكم: إن من أشراطها إذا كانت الفاحشة في كباركم والملك في صغاركم والعلم في رذالكُم، والمداهنة في خياركم، وحيث قال مَنْ حَظَّ على الجُمُوعَةِ والجماعة: «إذا رأيتُم الحُفَاةَ العِراةَ يتطاولون في البنيان فانتظروا الساعة»، لأنهم لا يشتغلون بالذكر ولا بالعلم ولا بالجهد، وإِنَّمَا هُمْ من الأعراب الذين يَسْعَوْنَ في الأرض الفساد، وحيث قال خاتم أنبياء الله ورسله: «إن من أشراط الساعة إذا تَوَلَّى الأمرُ غَيْرَ أَهْلِهِ»، وحيث قال المظلل الغمام، الطاهر المعصوم فارس الإسلام الذي جَرَّدَ حُسَامَهُ: «بَآئِي زَمَانٍ على أمتي لا يُتَّبَعُ فيه العالم، ولا يُسْتَحْيَا فيه من الحليم، ولا يُعَزُّ فيه الكبير، ولا يُرْحَمُ فيه الصغير ويُقْتَلُ بعضهم بعضاً على الدنيا، قلوبهم قلوب الأعاجم، وألسنتهم ألسنة العرب، ولا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكراً، يمشي الصالح فيهم مستخفياً، أولئك شرارُ خلق الله، لا ينظر الله إليهم يوم القيامة»، والله درُّ القائل حيث قال، وأبدع في المقال:

أَيَا دَهْرٍ أَعْمَلْتَ فِينَا أَذَاكَ وَأَوَلَيْتَنَا بَعْدَ وَجْهِ قَفَاكَ
قَلْبَتَ الشَّرَارِ عَلَيْنَا رُؤُوساً وَأَجْلَسْتَ أَرْدَالَنَا مُسْتَوَاكَ
فِيَا دَهْرٍ إِنْ كُنْتَ عَادِيَّتَنَا فَهِيَ قَدْ صَنَعَتْ بِنَا مَا كَفَاكَ

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وهي في مضائنها أظهر من شمس الظهيرة، ومن أراد عن ما أوردناه كشف القناع، فليراجع من كتاب «الإشاعة» لجَدِّي (٢)

حَدِيثَ حَجَّةِ الوداع، فحيث تَمَّ مَا أوردناه من كلام الصادق، الذي ضوء بيانه
أشرق من الفجر الصادق.

فأقول، وبحول الله أصول: ولما كان شهر رجب الحرام الأصب، سنة ألف
ومئة وأربع وتسعين، من هجرة صاحب العز والتمكين، أقبل أمير مكة إلى المدينة
يسير، وكتب كتاباً لأهلها بالأمان للصغير والكبير، ثم بعد الوصول، أظهر
المسكنة والحمول، فانكب عليه أغاة القلعة، وأحمد المكي وأمين، متشفعين عنده
بسيد العالمين في ضريحه وبين يديه، وهو حيٌّ في قبره يَرَى مَنْ لديه^(٣)، ولم يك
لهم معه سابقة أذية وعصيان، إلا عدم الرضا بإدخال الذين حاربوا الله ورسوله
والسلطان، فقال: قد عفا الله عنكم أجمعين، إكراماً لإمام المسلمين، وأمنهم أماناً
بين يَدَي سَيِّد الأنام، يعم الخاص والعام، ثم صنع باباً من فِضَّة لباب الوفود،
والله أعلم أنه عليه مردود، فمن مارَسَمَهُ على الباب الخارج عن الحدِّ في
الإطتاب، المشعر بإظهار البغي والعصيان، على ملك آل عثمان: عمر بيت الله
سلطاننا سرور له رَأْيٍ وَعَقْلٌ مُصِيبٌ، كذا وغير ذلك، مما هو ثابت هنالك، وقد
أَدْخَلَ القُمَّمُجِّي ومن معه من الأخوان، الذين ورد بالنفي فيهم (الفرمان)،
وأشاع من مكروه وخِبة، أنه لا يروع آمناً في سِرِّبه، وأنه إذا خرج يخرجهم معه،
ولا يبقِيهم بعده جُمعة، وكان وصوله تاسع رجب، فأظهر العَجَب، وهو أنه لما كان
يوم السادس والعشرين دعاهم ضحوة النهار إلى داره، وهم بأمانة وأيمانه مُغْتَرِّينَ،
فحين بين يديه أجلسهم، مسكهم وحبسهم، وأرسل عسكره بسرعة، وأمرهم
بملك القلعة، فحين رأى أهل القلعة عسكره مقبلين، قفلوا الباب وترَّسوا في
الحين، فأرسل إليهم يأمرهم بتسليمها، وعليهم الأمان، فقالوا: ما نسلمها إلا
إن كان معك أمرٌ من حضرة مولانا السلطان، وأما أنت فكيف تأمنك أو نطيع
أمرَك وقد غدرتُ حكامنا وكرت مكرَك، ثم رضوا بالخروج والمهلة، ويخرج كل
منهم ماله وأهله، فامتنع وبغى، وتجبر وطفى، ورمت جُنُودُهُ الذين أرسلهم لملك
القلعة الباغين، بالبنادق على من بمساكنها مقيمين، وقال بَيِّرْ قَدَارِهِمْ: يخرجون
وهم كلاب، فَرُمِيَ من القلة الشامية برصاصة فوق ميتاً على الباب، فحمل على

القلعة أمير مكة بجنوده، وقد أقام أعلام البغي ببنوده، ونهبت عساكره ما حول القلعة من الدور وأشعلوا بها النار، وأخرجوا النساء عاريات مسفرات، ودمعن كالبابل المدرار، وسدد على أهل القلعة العيون، وأسأل بذلك منهم العيون، وهو مع ذلك يرى أنه على الحق المبين، ولسان حاله يقول: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾، وكان عدد جنده خمسة آلاف، وحمل معهم ما يقارب ألفين من عبيد أغوات الحرم، وجماعة القممجمي، وبعض من الأصناف، وترس على القلعة من اثني عشر مكان، فلم يصب من فيها ضرر بوقاية الله المنان، ثم حمل مقدار ألف من الأرض بالسلام، فلم يصل منهم أحد إلى جدار القلعة وهو سالم، فتركوها وولوا الأدبار، فنزل ثلاثة من القلعة إلى السلام وأشعلوا بها النار، واشتد عليهم الحصار، فثبتوا يومين وثلاث ليال، ثم نزل بعضهم في اليوم الثالث على الحبال، وسبب هذا الخوف والنزول، سحر ساحره المخدول، ونقب صغير، في قلة باب الصغير، والدال له على النقب المفسد القممجمي، والشقي شقلبها، وكل منهم آذى المدينة وشقلبها، وقد أمر سرور عسكره بقتل من نزل من السور، فقتل ثمانية عشر رجلاً، أسكنهم الله جنته مع الحور، وقتل من جماعته نحو خمس وستين، وقيل ما ينوف على السبعين، وأباح القلعة وأموالها، وهتك نساءها ورجالها، ثم مسك الباقين بعد أن رموا السلاح طائعين، وباعوا أمتعتهم ينادون عليها بالحراج في الأسواق، مستحلين ذلك والناس يشاهدون وتذرف منهم الآماق، ويشتمون أهل المدينة بالليل والنهار، ولا ينادونهم إلا بيا يهود يا كفار، وقد فعل بعد أن أخذ القلعة وقتل من قتل ومسك من مسك من الأشخاص، تعشيرة ونظاماً ما رآه العام والخاص، وجملة من مسك من الذين كانوا محاصرين نيفاً وخسين، ثم مسك أيضاً من أعيان أهل المدينة، المتردين برداء الوقار والسكينة، والسبب في مسك الباقين إلقاء بعض المنافقين كالقممجمي، الذي لم يفعل أفعاله نصراني ولا يهودي، والمفتن المفتي السمهودي، وأراد أن يمسك بعض الخطباء والسادات المحترمين، فكان الله لهم أعظم حافظ ومعين، ثم لما تم له الحال، أخذ (شقلبها) وفي عنقه الأغلال، وأقام بالمدينة بعد أخذ القلعة شهراً،

وخرج منها عصراً، والحال أنه بعد أن وصل، وفعل بالمدينة ما فعل، كتب عرضاً إلى الدولة العلية، على لسان أهل المدينة النبوية، ومضمون العرض: أنه لما وصل الحاج المصري بعد أن عاد من المدينة وبالحثيف نزل، قاتلته العرب من كل جبل، وقتلوا الحجاج، وقطعوا السبل والفجاج، ركبنا عليهم غيرة لحضرة السلطان، فانتصرنا عليهم وقصدنا زيارة جدنا سيد الأكوان، فلما وصلنا إلى البلدة، وجدنا أهلها في غاية من الكرب والشدة، والقتل والنهب والطعن والضرب، وانقطاع المسالك - والحال أن أهل المدينة على خلاف ذلك - فأرسلنا إليهم بالأمان، والإكرام والإحسان، ثم بعد أن أقمنا بالمدينة اثني عشر يوماً، وقفنا على كتب من كبارهم يستصرخون بها لقتالنا بادية وقوماً، فمسكنا عند ذلك رؤساءهم المفسدين، وأبقائناهم عندنا مُصَفَّدِينَ، وأرسلنا لأغواتهم بالأمان، وأمرنا بعض عسكرنا بالدخول معهم في القلعة، خوفاً من الخديعة والخذلان، فأغلقوا القلعة ورموا بالرصاص على الأودم والبهائم والشراف، وتركوا كُلَّ مَنْ بالمدينة وهو مرعوب خائف، فحملنا عليهم بعساكرنا المنصورة، وقاتلناهم قتلاً أحرَّ من حرِّ الظَّهيرة، وفتحنا القلعة يوم التاسع والعشرين من رجب الحرام، وأسكنَّا بها وزيراً من طرفنا والسلام.

وأمر أهل المدينة والمجاورين بمهر العرض المزور في الحال، فمَهَرُوهُ خوفاً على الروح والعرض والمال، ثم عزل أحمد أغا شيخ الحرم، وأمره بالمسير معه إلى بيت الله المحرم، فصادف بعد عزله ورود الأمر السلطاني بنصب علي أغا، الذي كان في السابق مصاحباً للملك العثماني.

ودخل الحُجْرَة وأتباعه قبل رحيله بساعة، وطلب سُلماً من السلام، وتهجَّم على قبر الفاتح الخاتم، ولم يُحْشَ من تصرفاته وذلك لوفور البغي، ولم يتذكر أنه ﷺ في قبره حي، ثم رمى بكتاب، وأخرج شيئاً من الحجرة قيل: إنه تراب، وبات ثلاث ليال مع أتباعه والحُرَم، وطرد جميع الأغوات الطواشية إلى مؤخر الحرم، فشاع فقْدُ الكوكب الدُّرِّي واشتهر، ولم أقف على حقيقة الخبر، ثم أخرج

المربوطين، وعددهم ستة مع ستين، فساقهم ماشين على أقدامهم، وفي أعناقهم السلاسل والقيود، محيطة بهم عساكره والجنود، فعلا البكاء والنحيب، من البعيد والقريب، ونادوا: يا رسول الله جيرانك، عودتنا فضلك وإحسانك^(٤).

وكان رحيله يوم الثاني والعشرين من شعبان، والقلوب قد استعرت بالنيران، وسار من الشرق، وبعد مسيره سَحَّ علينا الودق، وقد أقام بالقلعة وزيراً مختلاً كفوراً، فبعد سفره جاءنا الخبر الصحيح عن العمدة، أنه أمر بزيئة مكة وينبع وجدة، فزينوهم امتثالاً لأمره، وخوفاً من قهره، ولما توطن وزيره القلعة ومن معه جعلوها داراً لهو وغنا، وخمر ومفاسد وزنا، وآذوا الكبار من أهل المدينة والصغار، وقالوا: هكذا أمرنا أن نصنع بهذه الكفار، وأبطل وزيره الشرع الشريف، وأهان العالم والصالح والقوي والضعيف، وجعل على إجازة ريال^(٥)، وتحذث بأخذ ثلث ما يرد من الدولة العثمانية، وأخذ بيوت المال، وأقام على العتو والطغيان، وأفطر هو ومن معه بثبوت العدول شهر رمضان، ولم يكفهم هذا حتى هتكوا الحرم، وآذوا مُحَذَّرَات أهل الحرم، وصاروا يخرجون في الظلمة، ويتعرضون لكل حُرَّة وأمة، ولقد زاد بهم الحال، حتى شوهدهم منهم بعض رجال مواقعين بعض من أغواهن الشيطان، عند باب قلعة السلطان، وبغوا واستكبروا استكباراً، وفعلوا ذلك نهراً جهاراً، غير محترمين جوار مُشَرِّع الشرائع، بل استحلوا الورود من خبال هذه المشاريع، لأنهم لا يجدون منعاً من مانع، ولا دفعاً من دافع، فانتدب لذلك أهل الأعراض، وجعلوا نفوسهم أغراضاً للحق لا للأغراض، مشمرين للقيام بحقوق الجوار، باذلين مُهَجُّهُمْ في حفظ هذه الديار، مُرابطين في سبيل الله آناء الليل وأطراف النهار، لإزالة هذه الخبائث والأقذار، فاجتمعوا في بيت وتعاضدوا، وتلازموا في الله وتعاهدوا أنهم إخوان، وللحق أعوان، وأنهم يُخْرِجُونَ من القلعة السلطانية هذه الفرقة الشيطانية، فظهر الخبر وشاع، وملاً الأسماع، فَبَعْدَ أن بلغ الوزير الخبر، أضمر على قتلهم وأصر، فشرعت عساكره بالبطش في الخلق والأذية، فعند ذلك قامت الرعية، فأغلق الوزير باب القلعة، ورمى بالمدفع والبنادق، على بيوت المدينة ومن فيها من

الخلائق، واشتد عليهم الحصار ولم يبالوا بما وقع وما صار، وقال لسان الأقدار:
 ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارُ﴾ واستعرت نار القتال، إلى ثالث عشر شوال،
 وكان قيام الرعية لقتال هذه الطائفة أرباب البغي والعدوان، ضحوية الرابع
 والعشرين من رمضان، ولم يتخلف أحد عن قتالهم إلا الأغوات الطواشية،
 مراعاة لأمير مكة، وبغضاً لأهل المدينة النبوية، فبلغ خبرهم إلى (حرب) بأنهم لم
 يعينوا في هذه الحرب، فكتبوا لهم كتاباً، أربعوا به قلوبهم إرهاباً، ومضمونه: قد
 بلغنا ما فعلتم أيها الزنج الباغية، والفئة الخائنة عيش السلطان، والطاغية،
 بجيران أشرف القبائل من البوادي والحضور، وإعانتكم لهذا الخارجي أمير مكة
 سرور، فإن لم تنتهوا عما أنتم فيه من الخيانة والنفاق، لنَجْرَدَنَّ عليكم السيف
 الذي هو أصدق أنباء من الأوراق. فَضُرِبَتْ عليهم الذلة، وتعاهدوا مع أهل
 المدينة وهم أذلة، فبعد انصراف أعيان أهل المدينة من الجمعية، ظهرت أشايرُ
 نقض العهد منهم والتعرض للأذية، وذلك أنهم طلبوا الإعانة من بني علي وبني
 سَفَر، وبذلوا لكل منهم عشر ريات على أنهم يبقوا أهل المدينة خبراً بعد أثر،
 فبلغ خبرهم أهل البلاد، فارتعبت منهم الأكباد، لأنهم صاروا بين عدوئين،
 كالليث بين فارسين، فبينما هم في الأمر مفكرين، بلغهم أنه وصل ابن جُوَيْر وهو
 للوزير مُعين، لأنه الشيخ الذي ولاه أمير مكة سرور، لازال مذموماً مدحوراً،
 فحصل الرعب، وأيقنوا بالقتل وانتهاك الحرم، وأن جُرْحَ الزنج قد انحسم، وقد
 زلّت بهم القدم، ولم يدرون (؟) ما جرى به القلم من القَدَم، فبينما هم في غاية
 القلق والضجر، متضرعين إلى الله بسيد الملائك والبشر^(٦)، بلغهم أن جُرُودَ
 محمود ونصار وصلت، وبآبار سيدنا علي رضي الله تعالى عنه نزلت، ففرح أهل
 المدينة الفرح الشديد، وخافت بنو علي وبنو سَفَر والزنج والعبيد، فضج أهل
 المدينة من جميع الأماكن مهللين ومكبرين، وساء إن شاء الله صباح الزنج
 المنذرين، فالذين وصلوا تلك الليلة من مشائخ حرب محمود ونصار، وقالوا:
 نحن جئنا نصرة لجيران المختار، ونزلوا بخارج السور، ونادوا: اخرجوا من القلعة
 يا قوم سرور، فلم يردوا جواب، نبخوا كالكلاب، ثم بعد يومين جاء الصديق

الناصح، وأخبرهم أن أمير المدينة صالح، صاح في بني علي وبني سفر، وأوعدهم بالدرهم ونهب جيران طه المفتخر، فتوجه إلى نائب شيخ الحرم، بشير أغا المحترم، من السادة الخطباء، والسياسة النجباء، مولانا الأفندي عبد الله الخليفتي المفتي الحنفي، والوالد مولانا السيد محمد البرزنجي، والعم السيد حسن أخيه، والخطيب قاسم مغلباي، وابن عمه، والخطيب محمد البري ومن يليه، ومن الرعية عبد الله الطيار وبعض التجار، ومن العساكر الشهم الأبى الشاب الضرغام محمد سعيد المغيري، وبقية رؤساء العساكر، وكل واحد من الجميع كالليث الزائر، وطلبوا منه أن يخرج لهم من بيت المال، ما يستعينون به على القتال، فوعد وأخلف، وأفسد البلاد وأتلف، وامتنع وتزربن، ودخل داره وتقلعن، إعانة للزنج اللثام، وأذية لجيران النبي عليه الصلاة والسلام، وأمر بترك القتال، ووضع السلاح وتفرق الرجال، وأراد بعد أن يتفرقوا يسجن كبارهم بالخدعة، العاجلة السريعة، ويرسلهم إلى أمير مكة الكتيب، لأنه قال: السلطان بعيد وهذا قريب، فأجابه الحاضرون من حقير وجليل: سيف مولانا السلطان طويل، فحين علموا بذلك، مسكوا بالرجال والشباب والصبيان جميع المسالك، ومعهم العلماء والصلحاء، والسادات والخطباء والمجاورين، يحمون مدينة طه الأمين، من كل شيطان رجيم، وزنجي لئيم، فاجتمع أعيان البلدة والتجار، ووضع كل منهم بقدر طاقته من الدرهم والدينار، وقد طلقوا من الجفون الكرى، إطاعة لحضرة السلطان وإظهاراً لدين خير الورى، وفتحوا أبواب البلاد بالليل والنهار، وتقلد بالسلاح الكبار والصغار، ثم جمعوا بعد ذلك جمعية، ولوا عبید قبيطي (كتخدا النوبختية)، وجمعوا جمعية أخرى، وقلدوا محمد سعيد المغيري حُسبة السوق، وهو بها أخرى، ثم أشار على الناس أمير الصرة العثمانية سابقاً طاهر أفندي وبعض السفط المجاورين، أن يجعلوا لُغْباً تحت القلعة . . . (٧) وقد أعد لهم أهل المدينة أنواع الاستعداد والأرباج (؟) فمن ذلك عَشْرُ سلام تصل إلى الأبراج، ولم يقاتلوهم بعد القتال الأول إلا ليلة سابع شوال، حمل عليهم من جميع الجهات الدُّونُ والعال، فوصلوا من خارج السور إلى باب الصغير وباب الشامي، ومن داخله إلى عَيْنِ الساحة، مُنْكَرَيْنَ كَالسَّيْلِ الطَّامِي، ومعهم النساء والولدان،

والكهول والشبان، ثم رجعوا سالمين إلى أجامهم، وتركوهم مذعورين يصرخون من حُمامهم، ثم يوم أربعة عشر من شوال أُخْبِرْنَا أَنَّ ابْنَ جُوَيْرٍ قَصَدَ الْمَدِينَةَ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الرِّجَالِ، وَكَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَصَاحَ مُحَمَّدٌ شَيْخَ (حَرْبٍ) فِي مَنْ مَعَهُ، وَرَكِبَ جَوَادَهُ وَأَخَذَ عَنَانَهُ، وَاسْتَصْرَخَ أَصْحَابَهُ وَأَعْوَانَهُ، وَقَالَ: أَنْتُمْ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعَاهِدُونَ، وَلِزَادِهِمْ آكِلُونَ، فَمَنْ رَأَى مِنْكُمْ ابْنَ جُوَيْرٍ يَرْمِيهِ، وَلَا يَرْحَمُهُ وَلَا يَبْقِيهِ، وَمَسَكَ الْمَتَارِسَ، وَأَخَذَ طَائِفَةً وَمَضَى بِهَا إِلَى الْحَرَّةِ، وَنَظَرَ شِمَالاً وَيَمِينَ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْبَغَاةِ الْعَادِينَ، ثُمَّ بَلَغَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَنَّ الطَّوَاشِيَةَ لِلْعَهْدِ نَقَضُوا، وَأَدْخَلُوا ابْنَ جُوَيْرٍ وَلِلْأَذْيَةِ تَعَرَّضُوا، فَذَهَبَ لِتَحْقِيقِ الْأَمْرِ مِنْ طَرَفِ الْمَدِينَةِ عَبْدُ اللَّهِ جَاوُوشٌ، فَظَهَرَ لَهُ أَنَّ حَدِيثَ الرَّائِي مَخْدُوشٌ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ جَاوُوشٌ لَبَسُوا السِّلَاحَ وَوَقَفُوا عِنْدَ الْبَابِ، فَأَقْبَلَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ صَالِحٌ، وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِ ابْنِ جُوَيْرٍ الْمُرْتَابِ، فَغَلَقُوا الْبَابَ، وَتَرَسُوا السُّورَ، وَلَزَمُوا الْمَتَارِسَ وَالْدُّورَ، وَلَبَسَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَسْلِحَتَهُمْ، يَحْمُونَ بِيوتَهُمْ، وَأَمَكْتَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ الْعَصْرِ بِقَلِيلٍ، أَتَى أَخُو ابْنِ جُوَيْرٍ الذَّلِيلَ، وَمَرَّاهُ السَّعْيَ بِالصِّلَحِ بَيْنَ الْفَتَيْنِ، بِالْصَّدَقِ لَا الْمَيْنِ، فَطَلَبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَعْضَ السَّادَاتِ وَالْعُلَمَاءِ إِلَى الْوَزِيرِ، وَيَأْمُرَهُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْقَلْعَةِ كَظْمًا ذَلِيلًا حَقِيرًا، فَأَرْسَلَ مَعَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، وَالسَّيِّدَ حُسَيْنَ الْعُلَوِيِّ بِالْفَقِيهِ، فَخَاطَبَهُ كُلَّهُمْ بِمَا يَرْضَى أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَيَرْضِيهِ، فَطَلَبَ الْهُدْنَةَ، وَبِالْخُرُوجِ أَذْعَنَ لَهُمْ، لَكِنْ بَشَرَطَ أَنْ يَأْتَوْهُ فِي غَدٍ بِأَعْيَانِ الْبَلَدَةِ وَمَشَائِخِ الْعَرَبَانِ، وَأَنْ يَحْضُرَ الْجَمِيعَ كُلَّهُمْ، فَحِينَئِذٍ يَأْخُذُ مِنْهُمْ الْمَوَاقِيقَ وَالْعَهْدَ، وَيَطْلُقُونَ لَهُ الْقِيودَ، وَأَنَّهُ يَخْرُجُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَعَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، لَا السَّكِينَةُ، فَوَقَفَ الرَّمِي إِلَى أَنْ أَقْبَلَ الصَّبَاحُ، وَطَلَعَ الْفَجْرُ وَلَا حَ، أَتَى مُحَمَّدُ أَخُو ابْنِ جُوَيْرٍ وَمَعَهُ رُؤُوسُ الْبَادِيَةِ مُبَكَّرًا، فَتَوَجَّهَ الْحَقِيرُ^(٨) إِلَى الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَالسَّيِّدِ حُسَيْنِ، وَمَضَى بِهِمْ إِلَى تَقْبِيلِ أَعْتَابِ سَيِّدِ الْكُونِينَ، فَأَشَارَ عَلَيْنَا الشَّيْخُ أَنْ نَسْتَأْذِنَ نَائِبَ شَيْخِ الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ، لِيَكُونَ خَطَابِنَا لِلْوَزِيرِ قَوِيًّا، فَمَضَيْنَا إِلَى دَارِهِ، وَأَخْبَرْنَاهُ عَنِ الْوَزِيرِ وَأَخْبَارِهِ، وَأَشَارَ الشَّيْخُ أَيْضًا بِعَدَمِ الْوُصُولِ، وَإِرْسَالِ كِتَابٍ مَعَهُ وَمَعَ السَّيِّدِ وَالْمُرْسُولِ، فَتَفَهَّمُ مَطْلُوبَهُ وَخَطَابَهُ، وَنَرَدُ لَهُ جَوَابَهُ، فَفَرَضُوا بِذَلِكَ وَاسْتَحْسَنُوا، وَكَتَبُوا الْكِتَابَ وَخَتَمُوهُ، ثُمَّ مَضَى

الحقير^(٨)، والسيد والشيخ إلى الكواخي ومشائخ العربان، وأخبرناهم بما اتَّفَقَ عليه رأيُّ الأعيان، فمضى السيد والشيخ وأخو ابن جَوْبِرٍ وأعطوه الكتاب، وطلبوا منه الجواب بفصل الخطاب، فأذعن بالخروج من القلعة، وأنه لا يسلمها إلاً لنائب الحرم، ومن يأتي من الأعيان معه، وأن يعطيه رؤساء أهل المدينة ورؤساء البادية الوجوه والأمان، ويأتوه بمرزوق الجندي لأنه ذو وَجْهِ وَجِيهِ، في العربان، فتفرق مَنْ هناك، وقد رضي بذلك، وأنهم بعد صلاة العصر يأتونه، وبمرزوق الجندي يجمعونه، فلما كان بعد العصر مضوا إليه، ومعهم أخو ابن جَوْبِرٍ ومرزوق الذي اعتمد عليه، فقال: الآن الليل أقبل والوقت راح، ونحن وإياكم على ما نحن عليه إلى الصباح، ويأتيني مرزوق، ومعه ما يحمل متاعي من النوق، ويأتيني شيخ الحرم والأعيان، فأسلمهم قلعة السلطان، وأمضي إلى البركة أنا ومن معي من القوم، وأقيم نهاري ولا أبقى لثاني يوم، فحصل للقلوب بعض انشراح، وتواعدوا للصباح، فقال أهل المدينة، إن أوفى بعهده كفى الله المؤمنين القتال، وإلا فاللَّغْبُ قد تم وَلَعْنَاهُ وحملنا على القلعة بالرجال، فهوَّنا على الشَّانِ (٩) وإنه إن أَخْلَفَ، فجميع الأمة تقاتل معكم غيرةً لحضرة السلطان، وحرصنا عليهم بحفظ المنارِس، وتطليق الكرا من طَرْفِ كل ناعس، إلى أن ييزغ فجر الصباح، وينادي المؤذن (حي على الفلاح)، فعند ذلك يظهر الخُتَالُ ويستريح البال، فلما كان بعد الإشرَاق بِسَاعَةٍ، أتى نائب الحرم والجماعة، ومعه السيد حسين والشيخ محمد والمفاتي الأكياس، والسيد محمد البرزنجي والسيد حسن، وعبد الله الياس، إلى بيت من بيوت الساحة، وكل منهم قد جعل وشاحه سلاحه، فجلسوا هناك، وأعلمه أخو ابن جَوْبِرٍ أن شيخ الحرم قد جَاكَ، فحرَّضَ على من معه في كف الأذية، فمضى شيخ الحرم ومن معه من كبار البادية وأعيان الرعية، فقال الوزير: أيها الأعيان، إني كنت كافراً والآن قصدي العود إلى الإيمان، ومن آمنَ حرم عليكم قتاله، وإني والله خائف وخارج لا محالة، فأعيدوا لي الأمان، وفي الغد يأتيني مشائخ العربان، فقال له بعض السادات: هذه أحوالك أحوال الولدنة والاستهزان (٩)، وها نحن إلى أماكننا راجعين (٩)، والموعد بيننا وبينك يوم الدين، فصاحت عساكره من جميع الجهات: لا تذهبوا

وراجعوه في الخطاب أيها السادات، وعلى وجوههم قبرة (؟)، ترهقها قفرة، فأجابوهم: ها نحن متوجهين (؟)، وإن كان مرادكم الخروج فخطبوه كلكم في الحين، والحال أن أمير مكة أبقي عنده ثلاثة بالقلعة من أهل المدينة مجروحين، فقال أهل المدينة: إن كان صادقاً في قوله يطلق لنا المحبوسين، فقال: في غد إذا فتَحنا باب القلعة نخرجهم ونسلم كل منهم وجاقه... (٩)، ثم رمى بكتاب إلى عبد الله الطيار، ووكله في الحساب له... (٩) في الدرهم والدينار، فتم الخطاب أنه يبقى... (٩) اليوم وتلك الليلة، ويأتيه كبار البادية ويخرج منها وقد علته الذلة، وأما الزنج فإنهم أرادوا نقض الهدنة، وإسعار نار الفتنة، فبلغ خبرهم إلى شيخ (حَرْب) محمود، فأخذ بالليل طائفة معه من الجرود، وقد حذرهم من النهار بكتاب، وأتى بعد العشاء من البقيع إلى الباب، ووضع تحته العتال، وبوشن ومن معه من الرجال، فارتعب منهم الجنان، واشتعلت في قلوبهم النيران، وقال: إن لم ترجعوا إلى ما أنتم عليه من الموائيق والعهود، وإلا قتلنا الكبار وأخذنا الأموال، وفعلنا بكم ما يفعل المسلمون باليهود، ثم ذهب إلى موضع ونام، جزاه الله خيراً عن جيران خير الأنام،... (٩).

ثم لما كان يوم سبعة عشر من شوال، جاءت كبار البادية والمشايخ والأطفال، وأتى إليه مرزوق بالركائب، وقال له: اخرج قبل أن تذهبك المصائب، وأناه بوثيقة ممهورة بجملة أمهار، وهي أمهار مشايخ حرب الذين أتوا نصرة لأهل هذه الدار، فعند ذلك أطلق الوزير المحبوسين، الذين أبقاهم عنده أمير مكة سرور، فانشرحت من أهل المدينة الصدور، وأخرج الشرايط وما جاء به من الخروق، وحملها على النوق، وأخذ جميع ما بقي في (الجبخانة) واقتفى أثر من غدر السلطان وخانه، وخرجت عساكره فإذا عددهم ثمانين (؟)، بعد أن كانوا مئة وتسعين، فحين خرجوا عند باب القلعة، ثارت منهم بندق بغير قصد، فأتت أهل المدينة مشهرين سيوفهم بسرعة، فصاحوا: عوافي يا أهل المدينة!!، فأنزل الله عليهم السكينة، وقد ضبط مارماه الوزير من المدافع على المدينة ما يزاحم ألفين، ولم يراعي (؟)، إمام الثقلين، ومن البنادق مالا يحصى ولا يعد، ولا يحصر ولا يحُد،

فلم يُجْرَحَ بحمد الله إنسان، سوى بقرة وكلبة وأتان، وقد أُخْبِرَ بعضُ الصالحين أنه بينما هُوَ وَسَنَانٌ، إِذْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وفي يده الكريمة بعض سواد فسأله عن سببه، فقال: سببه دفع الرصاص بها عن الجيران، وحين خرج الوزير وقومه من الباب الشامي، أقبل عليهم مقدارُ ستِّ مئة من الجرود، وأرادوا نهبهم، فمنعهم من ذلك أهل المدينة ونصاراً ومحمود، وذلك إيفاءً بالعهد، ووقوف عند الحد، ولم نفعل بهم كما فعلوا بنا من الغدر والعدوان، بعد العهد والأمان، فأقبلتُ أهلُ المدينة على باب القلعة مهللين ومكبرين، ومبيضين لسيد الأولين والآخرين، وأدخلوا في القلعة بعض الأعيان، ليضبطوا ما بقي بقلعة السلطان، فلم يجدوا بها غير المدافع وقد تفجر منها نحو عشرين، وقد وضعت عساكر الوزير بناحية (الجبخانة) ناراً فطفت في الحين، وقد أخذ سيدهم أمير مكة من المدافع أربعة [. . .] من مدافع المرحوم السلطان سليمان، - تغمده الله بالرحمة والرضوان -

ثم بعد العصر أتت إلى باب القلعة العساكر بالطَّيَّاس، وحضر لحضورهم جميعُ الناس، فوقفوا صفوفاً بعد صفوف، وتلاعبوا بالأرماح والسيوف، ووقف الجميع إلى الغروب، فَرُمِيَتِ المدافع، ولجَّتِ الغطارف من كل هيفاء خرعوب، وتعايدت الناس، وكثر الفرح والاستئناس، وقد بدلوا النواقيس بالأذان، والمزامير بالقرآن، فأنشد مؤرخاً عند ذلك الواثق بالملك الكريم الباري، الخطيب عبد الرحمن الأنصاري:

خَرَجَ الْوَزِيرُ بِشِيعَتِهِ وَقَدْ انْقَلَعُوا أَقْوَى قَلْعَةٍ
وَأَتَى فِي الْحَالِ مُؤَرَّخُهُ: (خَرَجُوا الزُّيُودُ مِنَ الْقَلْعَةِ)

وقال خطيب منبر سيد الكونين، المكرم بن الأنصاري حسين - ١١٩٤ - :

يَا حِصْنَ طَيِّبَةً مَنْ أَوْلَاكَ مَنَقَصَةً وَسَامَكَ بِالرُّخَا فِي كُلِّ مِيزَانٍ
حَتَّى تَوَطَّنَكَ هَذَا الْحَيِّثُ فَمَنْ بِاللَّهِ زَوَّجَكَ مِنْ كُلِّ عَدَوَانٍ^(١)

بَلَا صَدَاقٍ وَلَا عَقْدٍ وَلَا شَهْدَتٍ شَوَاهِدُ الْحَالِ فِي تَحْقِيقِ بُرْهَانٍ
قَالَتْ: وَحَقُّ الَّذِي أَنْشَأَكَ مِنْ عَدَمٍ مَائِمٌ شَيْءٌ وَلَكِنْ إِنَّهُ زَانِي

وبات تلك الليلة من الرعية بالقلعة خلق كثير، ورفعوا أصواتهم بالقراءة والتهليل والتكبير، وهم في غاية الانشراح، إلى أن طلع الصباح، ثم استدعى نائب حرم النبي المختار، محموداً مع نصار، فالبسهما فروزين (قاقوم)، والبس عبياً من بقي من كبار القوم، ثم جعلت رؤساء العساكر وأعيان الرعية قبلة لجميع حرب في الكركية، وحضر لحضورهم بعض خطباء منبر سيد البرية، ورؤساء العساكر وأكابر أهل المدينة النبوية، فبعد أن أكلوا الطعام، وحدوا الملك العلام، قرأوا الفواتح وتعاهدوا، وتلازموا وتعاضدوا، أنهم من الآن، في الله إخوان، وما مضى من الحقوق لا يُعاد بين الطرفين، إلا من له حق شرعي أو دين، ومن له عند رجل دعوة شرعية يطلبه مرة وثانية وثالثة ويشهد عليه اثنين، فإن امتنع جرّ إلى شريعة إمام الثقلين، ومن أصلح أو أعان أمير مكة سرور، أو زبن معيناً له بغير لزوم الأدب فهو بائق مثبور، ونحن وإياكم عليه، والأمر إلى الله والمصير إليه، فكتبت على ذلك الوثائق، وانقطعت العلايق.

ثم اجتمع رأي الكبار والصغار، أن يجعلوا (كتخذاً) القلعة عبد الله الطيار، فأبى وامتنع، وحلف وارتفع، وقد سكن بها الفتى الصنديد (الجوربجي) محمد سعيد وتحدث بالسكنى معه بعض الموالسين، ومن كان لأمير مكة معين، فجمع عند ذلك أهل المدينة جمعة، وفيها محمود ونصار بن عطية، واتفق الحال على منع سكناهم فيها خصوصاً كمال، وأن يسكن بالقلعة السلطانية، كل من حصلت له من أمير مكة الأذية، وبعد ذلك كتب أهل المدينة عرضاً لخليفة الله في الأرض طولاً وعرضاً، وأرسلوا به عبد الله الياس الخطيب، وأحمد أفندي (بني شهرلي) اللبيب، لأنهم متعلقون بدمته، لقوله ﷺ: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته»، وأخبروه في العرض بحقيقة الحال، وطلبوا منه الإعانة بالمال والرجال، لأنهم في غاية الكرب والشدة، خوفاً من أن يخرب أمير مكة هذه البلدة، وما شاء

الله أمضاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما زال يولي الجميل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(للمرسالة بقية)

الحواشي:

- (١) هذه الآثار مما يتعلق بفضائل البلدان، وكان المتقدمون من العلماء يتساهلون في روايتها، إذ لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية، ولهذا لم أر ما يدعو لإيراد كلام المحققين من العلماء في منزلتها من حيث الصحة.
- (٢) هو: «الاشاعة في أشراف الساعة» للسيد محمد بن عبد الرسول [والتعبد لا يجوز لغير الله] بن قلندر بن عبد السيد البرزنجي الشهرزوري ثم المدني الشافعي المتوفى سنة ١١٢٣ هـ.
- (٣) حياته ﷺ - وحياته إخوانه من الأنبياء هي حياة برزخية، الله سبحانه وتعالى أعلم بها، ولا شك فيها كما ورد عنه - ﷺ.
- (٤) دعاء الرسول - ﷺ - من الأمور المحرمة، لأن الدعاء من أمور العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، كما ورد في القرآن الكريم وسنة المصطفى - ﷺ.
- (٥) كلمة مطموسة في الأصل.
- (٦) التضرع إلى الله بسيد الملائك والبشر إن كان المقصود بمحبته وبطاعته واتباع أوامره وباجتناب نواهيه فهذا أمر محبوب مرغوب، لأن التضرع إلى الله والتوصل إليه بالأعمال الصالحة من الأمور المحمودة، أما إذا كان المقصود التوصل بذاته، - ﷺ - فهذا من الأمور التي لم ترد عن السلف الصالح.
- (٧) كلمة مطموسة، واللغز عموماً يعبر عنه في عصرنا بـ (اللغز) وضع كمية من البارود في حفرة أو إناء محكم ثم إيصال النار إليه لينفجر ويشتعل البارود، فيهد ما أمامه من بناء.
- (٨) يقصد بالحقير هنا المؤلف نفسه من قبيل التواضع.
- (٩) كلمات غير واضحة في الأصل.
- (١٠) لولا الأمانة العلمية التي توجب المحافظة على النصوص، لكان حذف هذه الآيات وحذف كثير من الكلمات السيئة أولى من اثباتها، وكلمة (عدوان) إشارة إلى القبيلة الكريمة التي منها الوزير الذي تركه أمير مكة رئيساً للجنود الذين في القلعة وقد تقدم ذكر اسمه في المقدمة، وهو من أسرة المضايغي المشهورة.

رحلة ناصر خسرو بين جامعتي القاهرة والرياض

— ٢ —

الجانب الثاني: القيمة العلمية لهذه الترجمة الجديدة:

اتخذ الأستاذ الدكتور البدلي من التأكيد بأن: (من واجب المهتمين بالدراسات التي تتناول الحضارة الإسلامية المشاركة في إبراز نشاط الأعراق المتعددة التي ساهمت في تكوين تلك الحضارة، فيبرز دَارَسُ دَوْرِ الفُرس، وآخر دَوْرِ الهنود، وثالث ..) إلخ. — المقدمة ص ١ — اتخذ من ذلك ما دفعه إلى أن:

١ — اعتبر (رحلة ناصر خسرو مصدراً من أهم مصادر التاريخ الإسلامي والجغرافيا التاريخية) وألح بإيجازٍ إلى بعض ما شملته أو تحدثت عنه، ومن ذلك (أهم أجزاء الجزيرة العربية في الحجاز ونجد، وتناولت جانباً من اليمن) — ص ١٠ — وأضاف: (فحديث ناصر عن مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف والأفلاج واليهامة والأحساء ذو قيمة تاريخية وحضارة كبيرة ... فقد رأى الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد ما لم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين والمتحمسين، ولقد أراح برحلته الستار عن جهات استقرار كثيرة في جزيرة العرب من الطائف إلى الأحساء مروراً بقلب نجد).

٢ — ولم يقف الدكتور البدلي عند هذا الحد، بل بنى عليه اتهام المؤرخين المسلمين (?) بأنهم يوحون من خلال تناولهم لهذا الجزء من الجزيرة بأنه مُغرِق في التخلف، ولا عَهْدَ له بأيِّ درجة من الاستقرار المفضي إلى أيِّ نوع من أنواع الحضارة.

٣ — بل اتَّسَعَتْ نظرة الدكتور إلى هذه الرحلة فاعتبرها بأنها (امتازت من بين الرحلات التي تَلَتْهَا كَرِحَلَتِي ابن جُبَيْر وابن بطوطة وغيرهما) — ص ١٢ — كذا بدون أن يلاحظ الدكتور في هذه المقارنة الشاملة لكل الرحلات، لم يلاحظ أنَّ أَيْة

مقارنة لا تصح إلا بين مُتَمَثِّلَيْنِ أو مُتَقَارِبَيْنِ في المَحْتَوَى والمضمون، وكلُّ باحث يدرك ضلالة ما تحويه رحلة ناصر من المعلومات بالنسبة للرحلتين الأخرتين، فضلاً عن امتيازها عليهما. مالنا ولهذا، فهو من اختصاص الباحثين المتعمقين في دراسة الرحلات.

ولكن مما لاشك فيه أنَّ قاريء هذه الترجمة الجديدة يتوق بعد أن أدرك نظرة العرب الكريم إليها، ويتمنَّى أن يجد فيها من المتعة والفائدة وغزارة المعلومات ما يقوي في نفسه الثقة والإطمئنان بصواب نظرة الدكتور البديلي إليها.

ولقد كان من المناسب الوقوف طويلاً عند اتهام المؤرخين المسلمين (؟) بدون استثناء بالجهل المطبق بأحوال قلب جزيرة العرب بحيث أبرزوه للقراء مغرقاً في التخلف والبعد عن كل مظهر من مظاهر الحضارة، حتى سجل الرحالة ناصر ما سجل من معلومات (جيدة عما مر به في تلك البلاد). ولكن من المعروف أن من طبيعة المرء عالماً كان أو باحثاً أو عاملاً في أي مجال من مجالات العمل أن يُبَرِّزَ عمله بالصورة التي يختارها، إلا أنَّ النظر إلى العمل نفسه – متى كان منبعثاً عن تجرد تام من المؤثرات التي قد تطمس الحقائق، أو تحول دون إدراكها – ذلك النظر به وحده يمكن أن تتضح معالم الصورة على حقيقتها، يضاف إلى هذا أن الأسس العلمية هي التي تُبْنَى عليها الأحكام، والعلماء أنفسهم هم أولى الناس بالبعد عما يصور الأشياء بما لا ينطبق على واقعها.

والأستاذ الدكتور أحمد البديلي من مثقفي هذه البلاد الذين نالوا قسطاً من العلم بدرجة تحمل على الثقة بهم، والاعتقاد بأن ما يقدمونه من أفكار وآراء، تقوم على أسس صحيحة، بحيثُ تعتبر من روافد الثقافة التي تسهم في بناء المعرفة وتوسيع مدارك الباحثين في كل ما له صلة بهذه البلاد تاريخاً وجغرافياً في حدود علمهم.

وما دام الأستاذ الكريم يرى أنَّ تلك الرحلة قد أضافت من المعلومات عن هذه البلاد ما لا يوجد في غيرها، و(تحدثت عن بعض أجزاء بلاد العرب بشكل جيِّد، ولولا إشارة هذا الرحالة لظلت المعلومات عن تلك المناطق رغم قلتها مشوشة مضطربة).

فمما لا شك فيه أن كل باحث متطلع إلى الاستزادة من المعرفة سيجد في آراء الأستاذ عن هذه الرحلة ما يحفزه إلى مطالعتها للاستفادة مما فيها من معلومات (جيدة) ويتطلع برغبة وأمل إلى ما أضافه وأضافه إليها أستاذ من أهل هذه البلاد أدرك ما امتازت به وما اختصت من روافد العلم والمعرفة دون غيرها من الرحلات. فهل يجد الباحث كل ذلك في هذه الترجمة الجديدة فيما أضافه إليها العرب الكريم؟ ثم هل يجد في الرحلة نفسها معلومات جيدة انفردت بها فأصبحت بذلك مصدراً يُرجع إليه في جوانب مما يتعلق بتاريخ بلادنا وجغرافيتها؟ لقد كنت ممن غني بقراءة هذه الرحلة في ترجمتها الأولى منذ نحو أربعين عاماً، قراءةً تعمّن واستفاداً، ولكنني لم أجِدْ فيها مما يتعلق بتاريخ بلادنا أو بجغرافيتها سوى معلومات يسيرة مشوشة مضطربة ناقصة، وغامضة في كثير من الأحيان. وَتَمَنَيْتُ أَنْ يتولى دراستها في أصلها الفارسي أحد أبناء هذه البلاد ممن نالوا ثقافة واسعة، وإلماماً تاماً باللغة الفارسية، لا سيما وأن هذه الرحلة قد خُدمت من قبل ثلاثة من العلماء، وقد يكون هناك غيرهم، أحدهم فرنسي وهو شارل شيفر (Charles Schefer) الذي نشر الرحلة مترجمة إلى الفرنسية محققة نشرة استفاد منها الدكتور يحيى الخشاب، والثاني: الدكتور يحيى الخشاب الذي عرّبها، ورجع إلى تحقيق المستشرق الفرنسي، وقبله الأستاذ م. غني زادة الذي أضاف إلى نشرته باللغة الفارسية معلومات استفاد منها الدكتور الخشاب.

ثم جاء الأستاذ محمد دبیر سیاقی فحقّق تلك الرحلة ونشرها نشرة علمية، بحيث رجع إلى ما عرف من مخطوطاتها، وتصدّى لإيضاح كثير من الكلمات الغامضة فيها، أو التي وقع اختلافٌ فيها بين المخطوطات، وصدرت نشرته هذه قبل عشرين عاماً.

من هنا كان التطلع إلى نشرة علمية عربية لهذه الرحلة تقوم على أساس ما سبق أن قام به أولئك الباحثون حيالها من دراسات، مع إضافة ما هي بحاجة إلى إضافته مما يتعلق ببلادنا، ومن أولى من الدكتور البدلي الأستاذ في كلية الآداب في جامعة الملك سعود.

إنَّ القاريء يحس بصدمة عنيفة حين يتصفح ترجمة الدكتور البدلي، لا من حيث مطابقة النص العربي للنص الفارسي فما سبق أن أطلع القاريء على نماذج من الاختلاف بينه وبين ترجمة الدكتور الخشاب للرحلة، وهي نماذج أُريدَ منها التمثيل لا الحصر - ولكن الصدمة تحدث حين يجد القاريء أن كثيراً من المعلومات المشوشة المضطربة وردت في ترجمة الدكتور البدلي بدون إشارة إلى ما فيها من اضطراب أو تشويش، وقد يستغرب المرء المتصفح لترجمة الدكتور البدلي حين لا يرى في أية صفحة من صفحات الرحلة أي أثرٍ من آثار من درسوها ممن تقدم الدكتور البدلي، ولا أية إشارة إلى اختلاف النسخ الفارسية، وهو اختلاف لا شك أنه كان عميقاً الأثر في كثير من النصوص.

وأعجبُ من ذلك كله وقوعُ خلطٍ شنيع في تحديد بعض المواقع الجغرافية وتسمية بعضها بغير اسمها، مما لا يُعذرُ الدكتور البدلي بعدم إدراكه والتنبيه عليه وهو من أهل هذه البلاد، كالقول بأنَّ جُدَّة تقع إلى الشمال من البحر - ص ١٣٥ - والقول بأنَّ ذا الحُلَيْفَةِ مِيقَاتُ أهل المدينة المعروف يقع على بعد منزلتين من المدينة، وأنه مِيقَاتُ حاج الشام ومصر والمغرب - ص ١٢٢ - وأن قبر حمزة يقع جنوب المدينة - ص ١٢٢ - إلى غير ذلك من أخطاء هذه الرحلة التي كان المفروض أن يكون من أولى ما يتنبه إلى تصحيحها أساتذة الجامعة، حتى تخلو المنشورات التي تصدر عن جامعاتنا منها، فذلك الأمر من أوجب ما تقوم به هذه الجامعات، وإيضاح النواحي التي لا تتفق مع الواقع في تاريخ أمتنا وجغرافية بلادنا هو أساس ما يُعنى به علماءنا قبل غيرهم.

وسأحاول بإيجازٍ عرضَ نماذج مما تحدث به هذا الرحالة عن بلادنا لكي أُبينَ أن الأستاذ الكريم الدكتور البدلي كان بحاجة إلى أن يتعمق في دراسة هذا القسم قبل أن يوضح آراءه بصفة عامة عن الرحلة كلها توضيحاً لا أُتجنى على الدكتور حين أصفه بأنه لا ينطبق على الواقع.

١ - المظاهر الصناعية والعمرانية في قلب نجد: قال الدكتور البدلي: فقد رأى الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد ما لم

يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين والمتحمسين - المقدمة ص ١٣ - .

لنستعرض نص كلام الرحالة فيما ترجمه الدكتور نفسه - ص ١٦٢ - منذ خروجه من الطائف حتى بلوغه الأحساء، ليتبين في استعراضنا أن الرحالة وصف ما مر به باعتباره جزءاً من الصحراء محفوفاً بالمخاطر، خالياً من العمران، فضلاً عن المظاهر الصناعية والنشاط التجاري الذي لم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين - كما عبر الدكتور البدلي - .

لقد خرج من الطائف فكان أول ما مر به الحصن الذي دعاه (المطار) وقال: إنه يبعد عن الطائف أحد عشر فرسخاً.

وهنا لم يشر الرحالة إلى أي أثر للعمران في هذا الحصن، بخلاف غيره من العلماء ممن وجه إليهم الدكتور البدلي تهمة إبراز تلك الأجزاء من الجزيرة في صورة من التخلف، وأنه لا عهد لها بأي درجة من الاستقرار المفضي إلى أي نوع من أنواع الحضارة.

لقد وصف عراً بن الأصبح السلمي في رسالته عن تهامة، وصف قرية (مُطار) بأنها من قرى الطائف كثيرة الزرع والموز، وذكر البكري في «معجم ما استعجم» ما يدل على عمران مُطار، فنقل أن في مطار أبد الدهر نخلاً مُرطباً ونخلاً مُصرماً ونخلاً مُسبراً، ونخلاً يُلَقَّح.

وقال الرحالة بأنه وصل بعد رحيله من مطار إلى موضع يقال له (الثريا) رأى فيه نخلاً كثيراً وشيئاً من الزراعة وتسقى أشجار النخيل والمزارع من بئر عليه سانية.

والدكتور المعرب لم يعرف القاريء بالثريا هذه، وهي فيما ظهر لي (تربة) ورد الاسم محرفاً، وتربة أسفل وادي أبيدة، وواديها من أخصب الأودية وأكثرها مياهاً، ونخلاً، ومياهه ظاهرة على وجه الأرض إلى عهد قريب.

وتربة هذه التي أصبحت الآن مدينة لها ذكر كثير في معجمات الأمكنة وفي كتب التاريخ، وورد فيها المثل (عرف بطني بطن تربة) وإليها سارت سرية بقيادة عمر

بن الخطاب - رضي الله عنه - في عهد الرسول - ﷺ - .

ويرى بعض الباحثين أن المقصود في كلام ناصر خسرو منهل الثريا الواقع في الهضب، هضب الدواسر كما في كتاب «عالية نجد» أحد أقسام «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية»، وما أرى هذا صحيحاً، فليس على منهل الثريا من النخل ولا من الزراعة ما ينطبق عليه وصف الرحالة، ثم إنه قال: إن هذا المكان يبعد عن الطائف خمسة وعشرين فرسخاً ($25 \times 3 = 75$ ميلاً) بينما الثريا التي في الهضب تبعد مسافة أكثر من مئتي ميل عن الطائف.

لم يصف ناصر خسرو تربةً بتقدم صناعي ولا عمراني، بل اكتفى بوصف الموضع بكثرة السرقة وانتشار الحروب، وأن الأمر فيه فوضى، كلُّ أعرابي يرى نفسه حاكماً لا سلطان لأحد عليه.

ثم ذكر الرحالة الموضع الذي وصل إليه بعد مغادرته ما سماه الثريا (تربة) وسماه (الجزع)، وقال: وفي هذا الحصن قليل من الزراعة وطائفة من النخل. ولم يزد على ذلك.

ولا يوجد في تلك الجهة التي مرَّ بها الرحالة من الموضع المذكورة ما يطلق عليه هذا الاسم فيما أعلم. وما أراه قصيداً إلا (الخرمة) ولا أستبعد تحريف هذا الاسم بـ (الجزع)، فالخرمة تقع في طريق المتجه إلى الأفلاج بعد تربة، وقد مكث ناصر خسرو في هذا الموضع خمسة عشر يوماً يبحث عمن يواصل معه رحلته لئلا يتعرض للنهب وما هو أسوأ منه.

ثم ذكر أنه مرَّ بحصن بني نسير، وهذا الحصن من الأمكنة المجهولة، ولا أستبعد أن يكون في وادي رنية، إذ الرجل الذي نقله منه على ما ذكر شيخ قبيلة من الأعراب تسمى بني سواد.

وقد يكون المقصود ببني سواد عشيرة السودة من قبيلة سبيع سكان بلدة رنية حتى هذا العهد.

ثم ذكر تنقله من يد خفير إلى يد خفير آخر، كالسلعة في هذه البوادي الموحشة التي قال: إنه لا شيء فيها سوى هذه الأعلاف الهزيلة التي تتغذى عليها الإبل لتصبح الإبل بدورها غذاء لهاؤلاء الأعراب.

فأين مظاهر العمران والحضارة التي وصفها ناصر خسرو في رحلته؟

ثم ذكر وصوله إلى الأفلاج بعد جهد ومشقة ومعاناة أهوال وسَمَّى الموضع (فَلَج) ووصف الأفلاج بأنها واحة كبيرة ولكنه عندما وصلها كانت أشبه بأطلال، خربت العصبية القبلية، ولم يبق عامراً من هذه الواحة سوى قدر نصف فرسخ في ميل واحد.

وذكر أن فيها أربعة عشر حصناً يمتهن أهل كل حصن العبث في الأرض فساداً — كذا قال !! — وأشار إلى وجود أربع عيون وذكر أنه لم ير البقر في هذه الصحراء، ووصف الزراعة في الواحة بأنها ليست كثيرة، فالفلاحون يزرعون القمح ليصنعوا منه ما يأكلون، ووصف ثمر الأفلاج بالجودة، وقال عن السكان: إنهم في غاية الفقر والمسكنة، وعلى درجة كبيرة من الجوع والعُري. وشيوع الأمية بينهم، ولا قيمة للكتاب لديهم — ص ١٦٥ وما بعدها.

ومن الأفلاج وصل إلى اليمامة، إذ رافق قافلة تحمل الجلود إلى الأحساء، وهذه الجلود تجلب من اليمن إلى الأفلاج، فيبيعها تجار الأفلاج على تجار اليمامة الذين يتولون نقلها إلى الأحساء.

أما وصفه لليمامة فلا يَغْدُو ذكر المسجد العظيم في المدينة المحاطة بسور حصين وفي خارج السور سوق فيه كل أنواع الصناعات.

أترى الدكتور البدلي اتخذ من كلمة (كل أنواع الصناعات) ما اعتبره أساساً ليصف ما أبرزه الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد؟ ولم يلاحظ أن مدينة تعتبر قاعدة بلاد نجد من أقدم العصور لا يستغرب أن تضم أنواع الصناعات.

ووصف ناصر خسرو اليمامة بأنها وفيرة المياه حيث تنتشر القنوات وتكثر أشجار النخيل وعندما يكثر التمر فيها يباع الألف من بدينار.

ما تقدم هو مجمل ما ذكر ناصر خسرو عن المواضع التي مرَّ بها في قلب نجد، وللقارئ أن يُقارَنَ بينه وبين كلام الدكتور البدلي.

تبقى الإشارة إلى أن المواضع التي مرَّ بها ناصر خسرو في رحلته ووصفها وصفاً أثَّار إعجاب الأستاذ الدكتور البدلي إثارةً حملته على أن يُنَجِّيَ باللائمة على المؤرخين المسلمين الذين بخسوا ذلك الجزء حقَّه، مما ينبغي أن يوصف به من التقدم العمراني والحضاري.

إنَّ هذه المواضع لقيت من اهتمام بعض المتقدمين وعنايتهم ما يبرز بعضها بصورة هي في صحتها وحسنها أوضح وأكمل مما صورها هذا الرحالة.

فالأفلاج مهَّدُ حضارةٍ قديم، بقيت آثارها إلى أوائل القرن الرابع الهجري، حيث نجد في «صفة جزيرة العرب» للهمداني فصلاً خاصاً في وصف هذه البلاد، وما تتمتع به من تقدم زراعي وعمراني، قلَّ أن نجد مثله لغيرها من أجزاء بلاد العرب الأخرى باستثناء اليمن.

وكانت تلك البلاد معمورة منذ أقدم العصور.

أما ما جاء في رحلة ناصر خسرو - ص ١٦٥ - من قوله: ويقول سكان هذه الواحة نحن أصحاب الرسيم الذين جاء ذكرهم في القرآن، إنهم قوم جهلاء غلاظ الأكباد. فيحسن الوقوف عنده حيث لم يُشِرِ المعرب الكريم إلى معنى (الرسيم) ولم يدرك أن صواب الكلمة (الرَّسَّ) اسمُ أمةٍ من الأمم مذكورة في القرآن الكريم في آيتين هما: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ - سورة الفرقان الآية ٣٨ - وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودٌ﴾ - سورة ق الآية ١٢ - .

وقد اختلف المفسرون في أصحاب الرَّسِّ هؤُلاء، وهناك من يرى أنهم أهل

الأفلاج، وقد ذكر هذا إمام المفسرين ابن جرير في تفسيره فيما رواه عن عكرمة، وعلى هذا فقول أهل الأفلاج: إنهم أصحاب الرُّس له أصل، وليسوا كما وصفهم ناصر خسرو بالجهل وغلظ الأكباد.

نماذج من أغلاط الرحالة في الترجمة الحديثة:

ليس في استطاعتي حصر ما في هذه الرحلة من أخطاء، ومعلومات مشوشة مضطربة لا تُطابق الحقيقة، لأنني لا أحسن اللغة الفارسية، ولكن الترجمة التي قام بها الدكتور البدلي وخاصة ما يتعلق منها بالبلاد العربية تحوي من ذلك ما يُستَكثَر ويستغرب، بالنسبة لأنَّ العرب الكريم من أهل هذه البلاد، وعلى درجة من الثقافة والعلم تمكنه من إدراك كثير منها، وتحتّم عليه إزاء ذلك إيضاح ما تدعو الحاجة إلى إيضاحه. وأكتفي بإيراد أمثلة موجزة منها:

١ - ص: ١٢١: (وتقع قبلة مسجد المدينة نحو الجنوب) و ص: ١٢٢: (ومكة تقع شرق المدينة).

هاتان الجملتان متناقضتان، فما دامت مكة تقع شرق المدينة، فينبغي أن يكون اتجاه أهل المدينة غرباً - والقول بأن قبلة مسجد المدينة نحو الجنوب يفهم منه أن المدينة تقع شمال مكة.

فكيف هذا؟

٢ - ص ١٢٢: (وعلى بعد منزلتين من المدينة رأينا جبلاً ذا مضائق شبيهة بالوديان، ويسمى المكان ذا الحليفة، وهي ميقات حاج الشام ومصر والمغرب). من المعروف أنَّ ذا الحُلَيْفَةِ هو ميقات أهل المدينة، وهو واقع في العقيق المجاور لها، وقد بلغه عمران المدينة الآن، ويعرف الآن بآبار علي.

أما ميقات حاج الشام ومصر والمغرب فهو الذي يبعد عن المدينة مسافة تزيد على مرحلتين، واسمه الجُحْفَة، ولا يزال الموقع معروفاً على مقربة من بلدة رابغ، على نحو خمسة عشر كيلاً منها في الجنوب الغربي.

فمن أين أتى وصف ذي الحليفة بكونه ميقات حاج الشام ومصر والمغرب؟ يظهر أن هذا من خطأ العرب، إذ في ترجمة الدكتور الخشاب وضع الاسم صحيحاً، كما ورد الاسم في الرحلة الفارسية التي طبعت محققة في إيران صحيحاً - ص ١٠٣ - .

ولا أستبعد أن يكون وَضِعُ الاسم الخطأ من قبيل سبق القلم من الدكتور البدلي، إذ هو من أهل هذه البلاد العارفين بمواقيت الاحرام، ولا شك أنه يعرف الفرق بين الميقاتين ذي الحليفة والجحفة.

وفي ترجمة الدكتور الخشاب (٦٧) حاشية على (الجحفة) فيها إشارة إلى سيل الجحاف الذي وقع سنة ثمانين من الهجرة، وهذه الحاشية لا تنطبق على (الجحفة) التي كانت معروفة قبل ذلك السيل، منذ العهد الجاهلي، ثم لما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة دعا الله أن ينقل حُجَّى المدينة إلى الجحفة، وقد وَفَّتها رسول الله ﷺ لأهل الشام، مما يدل على وجودها قبل سنة ثمانين من الهجرة.

ويلاحظ أنه ورد في ترجمة الدكتور الخشاب كلام يتعلق بالجحفة لم يرد في ترجمة الدكتور البدلي.

٣ - ص: ١٢٢: لما وَصِفَتْ نَاصِرٌ خَسِرُوا مَاقِعَ فِي الْحِجَازِ مِنْ شِدَّةِ الْفَقْرِ قَالَ: (وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ (٤٤٠) جَاءَ إِلَى مِصْرَ مِنَ الْحِجَازِ خَمْسَةُ وَثَلَاثُونَ شَخْصًا، فَأَكْرَمَهُمُ السُّلْطَانُ). ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ عَادُوا إِلَى بِلَادِهِمْ بَعْدَ هَظُولِ الْغَيْثِ. عِنْدَمَا تَحَدَّثُ الْفَاقَةُ وَيَشْتَدُّ الْفَقْرُ فِي قَطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ فَإِنَّ مِنْ يَغَادِرُهُ إِلَى الْأَمْكَنَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَوْجَدَ فِيهَا الْغَوْثَ وَالْعَوْنَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ الْقَلِيلِ (٣٥) شَخْصًا).

والواقع أن الذين غادروا الحجاز في تلك السنة على ما جاء في أصل الرحلة وفي ترجمتها العربية الأولى خمسة وثلاثون ألفاً، فلعل كلمة (الفا) سقطت سهواً من العرب، أو تطبيعاً في المطبوعة.

٤ - ص: ١٢٤: ذكر الرحالة أن قوماً من خراسان حجوا عن طريق الشام ومصر، قال: (ووصلوا إلى المدينة عن طريق البحر). وفي ترجمة الدكتور الخشاب - ص ٦٨ - : (فبلغوا المدينة في سفينة). ومن هنا يتضح خطأ ما جاء في الأصل الفارسي وفي الترجمتين، فالمدينة لا يُوصل إليها عن طريق البحر، وإنما يوصل إلى ميناء الجار الواقع غرب المدينة بما يقرب من مسيرة ثلاثة أيام تقطع على ظهور الإبل قديماً.

٥ - ص: ١٣٥: (وتقع مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر، وعدد سكانها نحو (؟) من خمسة آلاف نسمة، وهي تقع إلى الشمال من البحر).
ومعروف أن جدة تقع شرق البحر لا شماله.

٦ - ص: ١٣٥: (إذا خرجت من جدة واتجهت جنوباً وصلت إلى اليمن وإلى مدينة صعدة).

ومعروف أن صعدة لا تقع جنوب جدة، وقد كرر مثل هذا الخطأ حين عدّ مدينة صعدة من مُدن تهامة على ما سيأتي:

٧ - ص: ١٤٠ و ١٤٢: (ويقال إن أخذ أمراء مدينة عدن ويسمى ابن شاهدل اكتشف عين ماء غزيرة تحت الأرض فأمر بإجرائها إلى مكة) و (يحكم تهامة مملوك حبشي من ممالك عدن المسمى شاهدل).

(شاهدل) هذا الذي تكرر اسمه ليس معروفاً فيما اطلعت عليه من كتب التاريخ، وأمراء عدن معروفون إلى زمن المؤلف - منتصف القرن الخامس - وهم في ذلك العهد من موالي بني زياد، ومن أشهرهم الحسين بن سلامة، الذي له مآثر كثيرة عمرانية في طريق الحج وفي مكة وفي عرفات، وهو الذي ينطبق عليه قول المؤلف: (وقد أوصل ابن شادل الذي كان أميراً لعدن الماء إلى جبل الرحمة من مكان بعيد، وقد بنى هذا الأمير فوق جبل الرحمة طاقاً مربعاً كبيراً) ترجمة الخشاب - وقد نص الخنزرجي في «العسجد المسبوك» - ص ١٠٧ نسخة مكتبة

الحرم المخطوطة — أن الذي بنى فوق جبل عرفات هو الحسين بن سلامة، مولى أمير عدن إسحاق بن ابراهيم بن زياد، وهو عَبْدُ حَبْشِي يُنسَبُ إلى أمِّه، وقد حكم بعد وفاة سيده من سنة ٣٧١ إلى سنة ٤٠٢، وقيل إلى سنة ٤٢٦، وله مآثر عظيمة في الحجاز في حفر الآبار وإصلاح الطرق.

لهذا أرى أن كلمة (ابن شاهدل) أو (ابن شاددل) كما في ترجمة الدكتور الخشاب تحريف كلمة (ابن زياد).

٨ — ص: ١٤١: (رأيت خارج مكة بئراً يقال لها بئر الزاهد، وبجانبتها مسجد كبير وماء هذه البئر عذب).

كنت ظننت أن كلمة الزاهد — بالدال — تطبيع ولكنني رأيت الاسم ورد هكذا في الأصل الفارسي، وفي النسختين العربيتين، ولا شك أن المقصود هو الزاهر — بالراء — الذي لا يزال معروفاً ومنه كان يجلب الماء العذب قديماً إلى مكة.

٩ — ص: ١٤٢: يأتي هذا الرحالة بتعابير ليست معروفة عند متقدمي العلماء ممن تحدثوا عن بلاد العرب فيقول — ص ١٤١ —: (وتُسَمَّى أَرْضُ الْيَمَنِ حَمِير، وأرض الحجاز أرض العرب) وأضاف: (أرض العرب تمتدُّ من الكوفة إلى مكة، أما من مكة إلى عدن فيسمى أرض حَمِير).

لا شك أن اسم حَمِير كان قبل الإسلام يطلق على قبيلة كان لها نفوذ وسيطرة وحكم في بلاد اليمن، امتدَّ إلى نواحي من بلاد العرب، ولكن هذه القبيلة ضعفت وزال حكمها ونفوذها قبل ظهور الإسلام، ولما ظهر الإسلام لم يبق من نفوذها سوى مجرد ذكرها باعتبارها قبيلة من بين القبائل المنتشرة في بلاد اليمن، ثم بعد أن رسخ الإسلام — في تلك البلاد من العهد النبوي إلى عصرنا — زال اسم حَمِير من حيث النفوذ وأصبحت اليمن من حيث التقسيم الجغرافي جزءاً من بلاد العرب، التي لا تقتصر على ما حدده هذا الرحالة الذي لا يعرف شيئاً عن تلك البلاد، ولهذا قال — ص ١٤٢ —: (أرض حَمِير تنقسم إلى ثلاثة أجزاء:

١ — تهامة: وفي تهامة مدن كثيرة عامرة بالسكان مثل صَعْدَة وزَبِيد وصنعاء).

فقد عُدَّ صعدة وصنعاء من مدن تهامة، ومعروف موقعهما من بلاد اليمن،
وأُنهما بعيدتان عن تهامة.

٢ - ثم عد من الجزء الثاني من تهامة نجداً، كذا واعتبار نجد جزء من تهامة
مما يدل على أنه تلقف تلك الأسماء فوضع تعريفات لها هي أقرب إلى السذاجة
والجهل من أن توصف بأنها (ذو قيمة تاريخية) أو أن تنعت بالجودة.

٣ - وعد من الجزء الثالث من تهامة نجران وعثر وبيشة، وهذا من الخلط
الذي ما كان ينبغي أن يُمَرَّ على الأستاذ العرب الكريم بدون أن يلفت نظره.
إذ نجران وبيشة يفصلهما عن تهامة منطقة الحجاز.

وهنا ملاحظة هامة جداً، وهي أنني أخشى أن العرب الدكتور البدلي لم يكن في
تعريبه لكلام الرحالة دقيقاً، حين قسم تهامة هذا التقسيم. ويدل على هذا أن
الدكتور الخشاب أتى بما يخالف هذا ويطابق في كثير من وجوهه ما جرى عليه
متقدمو علماء تقويم البلدان، فقد قسم بلاد اليمن - ص ٧٨ - وهي بلاد حمير
ثلاثة أقسام: قسم منها يسمى تهامة وهو على الساحل الشرقي لبحر القلزم،
والقسم الثاني جبلي يسمى نجداً، والقسم الثالث ناحية المشرق، وعُدَّ من مدنه
نجران وعثر وبيشة.

أما ذكر عثر في ناحية المشرق فمن أخطاء ناصر خسرو، وكذا عُدَّ صعدة
وصنعاء من مدن تهامة.

ومهما يكن فإن تقسيم ناصر خسرو لبلاد العرب وللقسم الجنوبي منها في غاية
الاضطراب.

١٠ - ص: ١٤٦: بعد أن ذكر أن في المسجد الحرام (١٨٤ عموداً): (ومن
بين تلك الأعمدة عمود عند باب الندوة من الرخام الأحمر. ويقال: إن خلفاء
بغداد اشتروا هذه الأعمدة بوزن ما يباع الذهب) كذا.

ومفهوم هذا الكلام أن جميع أعمدة المسجد الحرام اشترت بوزنها ذهباً،
ولكن هذا مع مخالفته للمعقول لا يتفق مع ترجمة الدكتور الخشاب - ص ٨٠

— : (ومن هذه العمود عمود من الرخام الأحمر وَضِعَ عند باب الندوة قيل : إنه اشترى بوزنه ذهباً، ويقدر وزنه بثلاثة آلاف من).

وقد أوضح الدكتور الخشاب في آخر ترجمته عند ذكر المقاييس والموازين أن المن يساوي أربعين سيراً والسَّيرُ خمسة عشر مثقالاً.

١١ — ص: ١٤٦: أورد الرحالة أسماء أبواب المسجد الحرام في عهده، ذكر من بينها باب الفسانين، واستشكل المعرب هذا الاسم فوضع بجواره علامة استفهام كما فعل قبله الدكتور يحيى الخشاب.

وصواب هذا الاسم باب السُّفَيَانِيَّينَ، نسبة إلى بني سفيان بن عبد الأسد كما أوضح ذلك الأزرقى في كتاب «أخبار مكة» — ج ٢/٧١.

وذكر ص: ١٤٧: من أبواب الحرم باب (السطوي) مجاوراً لباب الصفا من جهة الغرب.

ولا شك أن هذا الاسم غير صحيح، ولم أر فيما اطلعت عليه من الكتب المتعلقة بتاريخ مكة ذكراً لهذا الاسم، ولكن ورد في رسالة في وصف مكة مخطوطة في (مكتبة دير الاسكورنيال) في أسبانية ومؤلفها من أهل القرن الرابع الهجري، وقد نشرت في مجلة «العرب» — سن ٨ ص ٣٢٤/٣٥٧ — جاء في تلك الرسالة في ذكر أبواب المسجد الحرام ما ملخصه: وفي الشق الذي إلى جانب الوادي وأبي قبيس ستة أبواب: باب البَقَالِيْن ثم باب الحَنَاطِيْن، ثم باب الغَزَالِيْن ثم باب الشطوين ثم باب الصفا. انتهى. فما سماه الرحالة الفارسي (السطوي) ورد في تلك الرسالة (الشطوين) وقد يكون محرفاً أيضاً، ولا أستبعد أن يكون منسوباً إلى أحد أصحاب الحرف، كالأبواب التي قبله. ويُلاحظ أن أسماء أبواب المسجد لم تثبت على حالة، بل كثيراً ما تغيرت بتغير الأزمان.

وذكر من أبواب المسجد الحرام باب (عروة)، وكذا ورد في ترجمة الدكتور الخشاب.

وصواب هذا الإسم باب الحزورة باسم سوق مكة القديم الذي ورد أن رسول الله ﷺ وقف فيه وقال - يعني مكة - : «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» كتاب «القرى لقاصد أم القرى» - ص ٥٩٨ .

وذكر الفاسي في «شفاء الغرام» أن اسم (حزورة) حُرِفَ إلى عَزْوَرَة .
١٢ - ص : ١٤٨ : (وارتفاع الكعبة ثلاثون ذراعاً وعرضها ستة عشر ذراعاً) وفي ترجمة الدكتور الخشاب - ص ٨١ - : (والكعبة في وسط ساحة المسجد، وهي مستطيلٌ طوله من الشمال إلى الجنوب ثلاثون ذراعاً، وعرضه من الشرق إلى الغرب ست عشرة ذراعاً).

هكذا اختلفت الترجمتان، فأيهما أصوب ؟

كانَ على المترجمين الفاضلين أن يرجعا إلى الكتب المؤلفة في الموضوع ليثبتا الصواب وأن لا يَعمَدا على رِجَالٍ كثيرًا ما يورد معلومات لا تقوم على أساس من الصحة .

لقد أوضح الأزرقى وغيره من مؤرخي مكة كل ما يتعلق بالكعبة ومن ذلك قياس طولها وعرضها، جاء في «أخبار مكة» - ٢٨٩/١ - باب ذراع البيت من الخارج : (طولها في السماء سبعة وعشرون ذراعاً، وذَرْعُ طول وجه الكعبة من الركن الأسود إلى الركن الشامي خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع دُبُرِها من الركن اليماني إلى الركن الغربي خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع شِقِّها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرون ذراعاً، وذرع شِقِّها الذي فيه الحجر من الركن الشامي إلى الركن الغربي أحد وعشرون ذراعاً) انتهى . والذراع هنا ذراع اليد، وقد أطال تقي الدين الفاسي في «شفاء الغرام» ١٠٧/١ وما بعدها الكلام في الموضوع مما يفهم منه أن القياس تقريبي .

وما تقدم يتضح أن الكعبة - شرفها الله - أقرب ما تكون إلى التربع، لا كما

ورد في الترجمتين، ولعلّ الخطأ فيهما راجع إلى وصف الرحالة الفارسي.

١٣ - ص: ١٥٣: عن سدة البيت: (وهم من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبه بن طلحة بن عبد الدار).

مع أن الاسم لم يرد في ترجمة الدكتور الخشاب، حيث اقتصر فيها على القول - ص ٨٦ - : (امتازت قبيلة من العرب تسمى بني شيبه بحفظ مفتاح باب الكعبة) - إلا أن نسب عثمان الوارد في ترجمة الدكتور البدلي غير صحيح، وصوابه: عثمان بن طلحة بن عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار. انظر «الإصابة» رقم ٥٤٤٠ وغيرها ممن ترجم الرجل. أمّا شيبه فهو ابن عثمان بن أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى، كما في «نسب قریش» - ٢٥٢ - .

١٤ - ص: ١٥٩: تكرر في هذه الصفحة اسم أمير عدن (شاهدل) وكذا في ص ١٦٠ ففي الأولى: ذكر أنه أمر بإحداث أحواض للماء في جبل الرحمة. وفي الثانية: ذكر أنه بنى فوق ذلك الجبل. وتقدمت الإشارة إلى أن صواب هذا الاسم فيما يظهر: الحسين بن سلامة مولى بنى زياد.

١٥ - ص: ١٦٤: (وصلنا إلى مكان جبلي تكثر فيه المنعطفات). وفي ترجمة الدكتور الخشاب - ص ٩٠ - : (وبلغنا مكاناً في وسط أرض ملؤها الصخور يسمى سرباً، رأيت به جبلاً كل منها كالقبة). لم ترد تسمية الموضع في ترجمة الدكتور البدلي.

ويحسن التنبيه على أن ما ورد في تعليق الدكتور الخشاب مما نقل عن (شيفر) من قوله: تسمى هذه الجبال بجبل الطويق. هذا ليس بصحيح، فجبل طويق يقع بقرب الأفلاج، والظاهر أن هذه الجبال هي جبال الهضب، ولعل اسم سرباً محرفاً عن الثريا اسم منهل في تلك الجبال.

١٦ - ص: ١٦٥: في الكلام عن الفلج وأن أهله يقولون: نحن أصحاب الرسيم وتقدم القول بأن الصواب: أصحاب الرّسّ. ودعت المناسبة لذكر الاسم

مرة أخرى لأنه ورد في ترجمة الدكتور الخشاب – ص ٩٠ – محرفاً (الرقيم)، والرقيم موضع آخر، وهو مذكور في القرآن أيضاً، ولكن النص الفارسي – كما هو في أصح طبعة لكتاب «سفر نامه» تحقيق دبير سياقي ص ١٠٦ – ورد الرسم.

١٧ – ص: ١٦٧: (وحكام اليمامة من العلويين).

كان حكام اليمامة من منتصف القرن الثالث الهجري من بني الأخيضر العلويين، أبناء يوسف الأخيضر بن ابراهيم بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، على ما ذكر ابن خلدون في تاريخه «العبر» – ٩٨/٤ – والجنابي في «البحر الزاخر» وابن عنبه في «عمدة الطالب» وغيرهم من المؤرخين.

أما ما نقله الدكتور الخشاب في هامش ترجمته – ص ٩٢ – من أنهم من عائلة طباطبا ورأسهم هو الإمام يحيى الهادي، فهذا غير صحيح.

١٨ – ص: ١٦٨: في وصف عيون الأحساء: (وعلى كل العيون سواق ترفع الماء تسقي المزارع).

عيون الأحساء تجري في السواقي بدون أن يُرْفَعَ مأوؤها، لأنها تفيض على وجه الأرض، ويلاحظ الاختلاف بين ما ورد هنا وما ورد في ترجمة الدكتور الخشاب – ص ٩٢ –: (وفي المدينة عيون ماء عظيمة تكفي كل منها لإدارة خمس سواق). ولكن النص الفارسي هو: (وجشما هي آب عظيم است وآن شهرکه هريك بنک اسيا کرد باشد وهما اين آب) – ص ١٢٣.

وذكر الدكتور نقولا زيادة في كتابه «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى» أن معنى الجملة أن جريان الماء يكفي لإدارة خمس طواحين لقوته، وأما القول بأن العين الواحدة يجري منها خمسة سواق، فهذا لا ينطبق على الواقع، لأن بعض العيون يجري منها من السواقي المتفرعة ما يزيد على العشرة، ومن المجاري الأصلية ما يبلغ السبعة، كعين أم سبعة التي أدركناها منذ عهد ليس ببعيد. وما أسرع ما ضعفت مياه تلك العيون منذ النصف الأخير من القرن الماضي حين

استنبطت المياه من جوف الأرض بالآلات الحديثة، فانخفض مستوى مياه العيون بسرعة، وأكثرها غار منها الماء.

لعل في هذه النماذج المتقدمة ما يوضح الحاجة إلى وجود ترجمة صحيحة لهذه الرحلة، مع عناية بدراسة ما ورد فيها مما يتعلق بتاريخ بلادنا وبذكر الأمكنة الواردة فيها، لتصبح الاستفادة منها تامة.

أما الجانب الثالث مما يتعلق بهذه الترجمة الجديدة:

فقد يتساهل به بعض المعنيين بنشر كتب التراث، ولكن ظروف العصر ومتطلباته أبرزت شدة الحاجة إليه. إنه وُضِعَ فهرس مفصلة للكتاب المنشور، لأن أي قارئ في عصرنا الحاضر ليس في استطاعته أن يستوعب قراءة الكتاب، باستثناء المعنيين بتتبع جميع ما فيه من معلومات، لهذا كان من أهم ما يُعْنَى به ناشرو هذا العصر تقريب مباحث الكتاب ومحتوياته بوضع فهرس مفصلة لها.

وكان من أولى من اهتم بذلك المعنيون بالنشر في الجامعات قَلَّ أن يصدر كتاب عنها إلا وقد استوفى ناشروه ما يلزم له من فهرس مفصلة شاملة.

وأذكر أن إحدى دور النشر في بلادنا (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) نشرت رحلة معربة لسائحة بريطانية هي الليدي آن بلانت، فكان مما لوحظ على طريقة النشر لتلك الرحلة عدم إيراد فهرس مفصلة لها، وكان ممن لاحظ ذلك أستاذ جليل من أساتذة جامعة الملك سعود التي أصدرت ترجمة الدكتور البديي لرحلة ناصر خسرو، فقد قال ذلك الأستاذ وهو الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري ما ملخصه:

- ١ - هناك أماكن وشخصيات لا أشك في أن القارئ قد يحتاج في كثير من الأحيان إلى أن يعرف عنها أكثر من مجرد ذكر اسمها، دون تعريف بها.
- ٢ - كما أن هناك حوادث كان يمكن أن يستفاد من تاريخ المنطقة التي حدثت

فيها لتوضيحها. وأضاف الدكتور الأنصاري: هذه وظيفة المترجم إن كان عالماً بهذه الأشياء، وإلا فهي وظيفة المشرف على طبع الكتاب وإخراجه.

وقال الدكتور الأنصاري: ورغم أهمية الكتاب فإنه يحتاج إلى جانب ما ذكرناه إلى مجموعة من الفهارس، فهو يحتاج إلى فهرس للأماكن وفهرس آخر لأسماء الاعلام - الخ - «العرب» ١/٤٥٥.

هذا ليس رأي الأستاذ الأنصاري وحده بل هو أمر يوشك أن يتفق عليه جميع المعنيين بشؤون النشر والمختصين به من الباحثين.

وترجمة الدكتور البدلي برزت خالية من ذلك مع أن رحلة ناصر خسرو قد خُدمت في نشراتها الأولى بوضع فهرس مفصلة ما كان على المعرب الكريم الدكتور البدلي أو على المشرفين على نشر ترجمته إلانقل تلك الفهارس ووضع أرقام المطبوعة الجديدة بالنسبة إلى ما ورد فيها من اعلام.

وأراني بعد هذه الكلمة المفصلة عن هذه الترجمة الجديدة لا أجد غضاضة في أن أقول: بأننا نتطلع إلى الدكتور البدلي لكي يقدم لنا ترجمة خيراً من تلك الترجمة التي لا أرى الدكتور الخشاب مبالغاً حين وصفها: بأنها تحوي هنوات ليست هيئات - مجلة الهمامة ع ٨٦٣ في ٧ ذي القعدة ١٤٠٥ ص ٥٤ - .

كما نتطلع إلى ما تنشره جامعاتنا تطلع من يرى في تلك الجامعات ويود ويحرص على أن تبلغ خير ما يمكن أن تبلغه جامعة تسعى لتقريب العلم، وتسهيل طرقه بمختلف الوسائل، ومن ذلك السير في منشوراتها على الطرق الحديثة للنشر التي تتلاءم مع روح العصر، وما يتطلبه من حفاظ على الوقت، وسهولة ويسر للوصول إلى المعرفة من أقصر سبلها. والله الموفق .

حمد الجاسر

المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية

- ٩ -

كَنْهَلُ

جاء في كتاب «بلاد العرب»^(١) كَنْهَلُ: فَإِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْأَحْسَاءِ أَتَيْتَ الْأَجَوَافَ، وَهِيَ قَرْىٌ وَمِيَاهُ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى بَطْنِ غَرْ، وَهُوَ بَطْنٌ فِيهِ مِيَاهُ وَقَرْىٌ وَعَيْونٌ، مِنْهَا بَنَاءَاتٌ^(٢)، وَمَاءٌ يُقَالُ لَهَا كَنْهَلٌ. قال الشاعر:

تَجَانَفَ عَنْ شَرَائِعِ بَطْنِ غَرْ وَحَدَّثَهُ عَنِ السَّيْفِ الْكُرَاعُ^(٣)
وقال في كنهل:

إِنَّ لَهَا بِكَنْهَلِ الْكَنْاهِلِ حَوْضًا يَرُدُّ رُكْبَ النَّوَاهِلِ
ثم تخرج من بطن غَرْ فتقع في السَّتَارِ، وفيه لهم أكثر من مئة قرية، لأفناء سعد ولأمريء القيس بن زيد، ومن قراها ثاج.

وذكر الأزهري في «تهذيب اللغة» أن كنهل ماء لبني تميم معروف. وفي كتاب نصر: كنهل ماء لبني سعد.

كنهل يسمى به في عهدنا عين تقع في وادي المياه (وادي الستار قديماً) تدعى (العوينة) و (عوينة كنهل) وبعضهم ينطق اللام راء (كنهر) كان يمرُّ بها درب الكنهرى من ميناء الجبيل (عينين قديماً) وموقعها غرب ثاج، بما يقارب خمسين كيلاً، ولكن مفهوم كلام صاحب كتاب «بلاد العرب» وقوع كنهل جنوب وادي

السُّتَارُ خَارِجاً عَنْهُ، فِي بَطْنِ غَرْ، شِمَالِ الْأَجَوافِ (الْجُوفِ). وَيُمْكِنُ تَوْجِيهِ كَلَامِهِ بِأَنْ مَا سَمَاهُ بَطْنُ غَرْ، هُوَ الْجَانِبُ الْجَنُوبِيُّ مِنْ وَادِي السُّتَارِ، وَأَنْ يَكُونَ كَنْهَلٌ وَاقِعاً فِيهِ عَلَى هَذَا الْإِعْتِبَارِ، لِأَنَّهُ وَصَفَ بَطْنَ غَرْ بِأَنْ فِيهِ قَرْىٌ وَعَيُوناً. وَالْوَاقِعُ أَنَّ جَنُوبَ كَنْهَلِ قَرْىٍ وَعَيُونٍ مِنْهَا مَا لَا يَزَالُ بَاقِياً مِثْلَ حَنِيزٍ وَعِرْجٍ، وَشُفْيَةٍ.

(تَقَعُ عُيُنةُ كَنْهَلٍ بِقَرَبِ خَطِ الطُّولِ: ٤٨/٢٠° وَخَطِ الْعَرْضِ: ٢٦/٤٥°) وَيَكَادُ إِسْمُ كَنْهَلٍ أَنْ يُنْسَى الْآنَ إِذْ يُقَالُ (الْعَوِينَةُ) غَيْرَ مُضَافَةٍ.

وَيَحْسَنُ إِيرَادُ نَصُوصِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَنْ هَذَا الْمَوْضِعِ، عَلَى مَا فِي بَعْضِهَا مِنْ إِشْكَالٍ.

قَالَ يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ فِي «مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ»: كَنْهَلٌ - بِالْكَسْرِ، ثُمَّ السُّكُونِ، وَالْهَاءُ تَفْتَحُ وَتَكْسِرُ، وَآخِرُهُ لَامٌ -: عَلَّمَ مَرْتَجِلٌ لِأَسْمِ مَاءٍ لِبْنِي تَمِيمٍ.
وَيَوْمَ كَنْهَلٍ قَتَلَ فِيهِ عُتَيْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ شَهَابِ الْيَرْبُوعِيِّ الْهَرَمَاسَ وَعَمْرُ بْنُ كَبْشَةَ الْغَسَّائِيْنِ، وَإِلَى بَيْنِهِمَا.

وَقَالَ جَرِيرٌ:

طَوَى الْيَنُّ أَسْبَابَ الْوِصَالِ وَحَاوَلْتُ بِكَنْهَلٍ أَسْبَابَ الْهُوَى أَنْ تَقَطَّعَا

وَقَالَ غَيْرُهُ:

إِنَّ لَهَا بِكَنْهَلٍ الْكِنَاهِلَ حَوْضًا يَسْرُدُ رُكْبَ النَوَاهِلِ

وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ، فِي أَيَّامِ كَنْهَلٍ وَكَانَ فِي أَيَّامِ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ فِي الْإِسْلَامِ:

سَرَى مِنْ أَصُولِ النَّخْلِ حَتَّى إِذَا انْتَهَى بِكَنْهَلٍ أَدَّى رُحْمَهُ شَرًّا مَغْنَمٍ
لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيْنٍ لَيْسَ الَّذِي أُجْرَى إِلَيْهِ ابْنُ ضَمْضَمٍ

انْتَهَى كَلَامُ يَاقُوتَ.

وَنَحْبِرُ هَذَا الْيَوْمَ وَرَدَ ذَكَرَهُ فِي شَرْحِ دِيْوَانِ الْفَرَزْدَقِ^(٤) بِمَا نَصَّهُ: أَصَابَ الْقَعْقَاعُ

بن عوف بن القعقاع بن مَعْبِد بن زُرَّارَة دماً في بني سعد بن زيد مناة، فخرج القعقاع هارباً حتى نزل ماءً يقال له كَنْهَل، فاستعَدَّتْ بنو سعدُ عُبيدَ الله^(٥) على القعقاع فبعث هُبَيْرَة بنَ ضَمْضَم في خيل وقال له: لئن لم تأتني به لأقتلنك، فظفر به هبيرة فامتنع عليه فبوا له هبيرة الرمح ليستأسر وهو لا يريد قتله، فأصابه الرمح، فهجم على جوفه فمات من تلك الطعنة مكانه فرجع هبيرة خائباً فقال الفرزدق:

وقائلة والدَّمْعُ يَحْدُرُ كِحَلَهَا لِبِشِّ الْمَدَى أُجْرَى إِلَيْهِ ابْنُ ضَمْضَمٍ
غَزَا مِنْ أَصُولِ النَّخْلِ حَتَّى إِذَا انْتَهَى بِكَنْهَلٍ أَدَى رُحْمَهُ شَرٌّ مَغْنَمٍ

وفي كتاب «النقائض»^(٦): أَنَّ زِيَادَ بْنَ أَبِيهِ بَعَثَ إِلَى بَنِي عَوْفِ بْنِ الْقَعْقَاعِ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ حَنْظَلَةَ - بَعَثَ إِلَيْهِمْ هَبِيرَةَ بْنَ ضَمْضَمِ الْمَجَاشِعِيِّ فَطَلَبَهُمْ فَأَدْرَكَهُمْ بِكَنْهَلٍ فَقَتَلَ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ عَوْفٍ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

سَرَى مِنْ أَصُولِ النَّخْلِ حَتَّى إِذَا انْتَهَى بِكَنْهَلٍ أَدَى رُحْمَهُ شَرٌّ مَغْنَمٍ
لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَى بَيْتَيْنِ لِبِشِّ الْمَدَى أُجْرَى إِلَيْهِ ابْنُ ضَمْضَمٍ

- إِلَى آخِرِ الْخَبَرِ -

وفي «النقائض»^(٧) أيضاً: فِي شَرْحِ قَوْلِ جَرِيرٍ:

هُمْ تَرَكُوا عَمْرًا وَقَيْسًا كِلَاهُمَا يَمُجُّ نَجِيعًا مِنْ دَمِ الْجَوْفِ أُخْرَا
قيس: هو أخو الهرماس وهما ابنا هُجَيْمَة، من غَسَّان، بارزها عُتَيْيَة بن الحارث، فعَادَى بينهما عِدَاءً، يوم كَنْهَل، وهو يوم غَوْل.

وجاء في «ديوان جرير»: ^(٨):

كان الهذيل بن هبيرة التغلبي غزا بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيان، فأطرد إبلهم يوم كَنْهَل، فقال له قومه: أين تطرد هذه الإبل؟ أَعَزُّ بَنَا عَلَى بَعْضٍ مِنْ ثَمَرٍ بِهِ، فَأَغَارَ عَلَى بَنِي كُوزٍ وَبَنِي هَاجِرٍ مِنْ ضَبَّةٍ، فَأَصَابَ فِيهِمْ ثَلَاثِينَ امْرَأَةً، مِنْهُمْ مَنْظُورَةُ بِنْتُ شَقِيقٍ، فَأَطْلَقَهُنَّ مَكَانَهُ وَهُوَ فِي دَارِهِمْ غَيْرَهَا، فَإِنَّهُ احْتَمَلَهَا، فَطَلَبَهَا

زوجها وأخوها. فقال: هي بيني وبينكما . . فُخِّرَتْ فقالت: والله ما كنت لِوَأَيْمِ زوجي ولا أنكس برأس أخي فأعطاهم إياها. وقال:

أَعْتَقْتُ مِنْ أَقْنَاءِ كُوزٍ وَهَاجِرٍ ثَلَاثِينَ لَمْ تُهْتِكْ لِسِرٌّ جُبُوبُهَا
وَمَنْظُورَةُ الْحَسَنَاءِ كُنْتُ أَصْطَفَيْتُهَا فَأَعْتَقْتُهَا لَمَّا أَتَانِي حَبِيبُهَا

وقال جرير^(٩):

وَسَاقَ ابْنِي هُجَيْمَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ إِلَى أَسْيَافِنَا قَدَرُ الْحُمَامِ

ابنا هجيمة: غسانيان قتلها عتيبة يوم كنهل، واسمها قيس والهرماس، أقبلًا في جيش حتى جاورا طارق بن ديسق أحد بني ثعلبة بن يربوع، وكان نازلاً على ماء يقال له كنهل، فأغارت بنو ثعلبة بن يربوع فأخذوا إبلها وصنائعها - والصنائع مثل الجند المرابطة تكون مع الملوك - فركب قيس بن هجيمة حتى أدرك بني ثعلبة يطردون النعم، فكر عليه عتيبة بن الحارث فقال: يا عتيبة هل لك في البراز؟ فقال عتيبة: ما كنت أسأله، وما كنت أدعُه إذا سُئِلْتُه - ثم ذكر مبارزتهما وقتل قيس، وقول مالك بن نويرة:

وَقَدْ عَلِمَ الْهَرْمَاسُ أَنَّ سُيُوفَنَا تَقْطَعُ فِي هَامِ الْمُلُوكِ وَتَنْشُبُ
عَلَا الْبَيْضَةَ الْعَلِيَا عَلَى حَدِّ قَرْنِهِ عُتَيْبَةُ بِالْمَعْلُوبِ غَيْرِ التَّجَنُّبِ

المعلوب: سيف قد شُدَّ قائمُهُ بالعلاء - عصب عنق البعير - التجنب:

الكذب.

أَسْرَكُنَا يَا ابْنِي هُجَيْمَةَ أَنَّهُ بِكِنَهْلِ إِذْ لَأَقَاكُمَا مُتَغَيِّبُ

وقد أورد النويري في كتاب «نهاية الأرب»^(١٠) هذا اليوم باسم (يوم غول الأول، وهو يوم كنهل) وساق خبره كما تقدم، وأورد بيت جرير بهذا النص:

وَسَاقَ ابْنِي هُجَيْمَةَ يَوْمَ غَوْلٍ إِلَى أَسْيَافِنَا قَدَرُ الْحُمَامِ

وفيا أورده إشكال، إذ غُولُ في عالية نجد – لا يزال معروفاً – وكنهل شرق الجزيرة والمسافة بينهما بعيدة –

وبلاد بني تميم لا صلة لها بغُول. فهل هناك موضع آخر بقرب كنهل كان يعرف باسم غول، أو أنه حصل خلط من رواية خبر يوم كنهل به ويوم غُول؟ وفي «معجم ما استعجم» – كنهل – بكسر أوله، وإسكان ثانيه، وكسر الهاء: ماء لبني عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، جاورهم عليه قيس والهرماس ابنا هجيمة، من غسان، في جماعة من قومها، ورئيس بني عوف يومئذ ديسق بن عوف بن عاصم، فأغار على ابني هجيمة قوم من بني يربوع، رئيسهم عتيبة بن الحارث بن شهاب، فاتبعهم ابنا هجيمة في قومها، فقتلها عتيبة، فهو يوم كنهل، ويوم غُول، قال جرير:

وساق ابني هُجَيْمَةَ يَوْمَ غُولٍ إلى أسيفنا قدر الحمام
فكنهل وغول متجاوران. انتهى. والقول بأنها متجاوران يدل على وجود موضع بقرب كنهل اسمه غول.

كواكب شحم
مركز تحقيق كافي علوم عربي

من مياه منطقة القطيف، شمال صَفْوًا بنحو ثمانية أميال، غير بعيد من ساحل البحر على ما قرأت في أحد البيانات، ولست على يقين من صحة الاسم، وقد يكون من المياه التي نضبت.

الْكُؤُوتُ

– بضم الكاف وإسكان الواو وآخره تاء –: يسمى به المكان المعد لإقامة الجند وحماية البلد كالقلعة والحصن، والكلمة ليست عربية الأصل، وقد تكون برتغالية أو هندية، وقَدْ مُنْصَّ اطلعت عليه ورد فيه ذكرها ما جاء في كتاب «البرق اليماني

في الفتح العثماني» لقطب الدين النهروالي المكي المتوفي سنة ٩٩٠هـ حين تكلم على دخول البرتغال إلى ديار الهند في أول القرن العاشر، قال^(١١): فكثروا في بحر الهند، وبنو في كُوَّة من بلاد الدكن. قلعة يسمونها كُوتاً، ثم أخذوا هرموز. انتهى.

ولما استولى البرتغاليون على الخليج العربي أنشأوا في موانئه قلاعاً عرفت الواحدة منها باسم (كوت).

ولما استولى العثمانيون على الأحساء في أول النصف الثاني من القرن العاشر اتخذوا مقرّاً لجندهم وولاتهم مكاناً مرتفعاً عن الأرض المغمورة بالمياه والزراعة ومجاري العيون حيث تنتشر الحمى — فبنوا فيه قلعة كبيرة عرفت باسم الكوت، وأصبحت منذ ذلك العهد قاعدة للمنطقة إلى سنة ١٣٧٠، حيث أصبحت القاعدة الدّمّام.

وبعد اختيار مكان الكوت — في العهد التركي — كثر السكان حوله حتى أصبح مدينة ذات أحياء عديدة، منها الكوت، والرّقعة، والنعاثل، والصالحية، والرقيقة. وعرفت المدينة باسم الهفوف (الهفوف) وسيأتي ذكرها.

وقد اتخذ الكوت مقرّاً للولاة منذ منتصف القرن العاشر الهجري حيث أنشأ ولاية الأتراك فيه كثيراً من القصور والمساجد الجميلة الرائعة الهندسة — وأحيط بسور وأبراج مرتفعة، وبخندق من وراء السور . . وأقدم ما رأيته مؤرخاً من مبانيه مسجد الدبس ففيه حجر منقوش فيه اسم بانيه محمد باشا والي بلد الأحساء، في عهد السلطان سليمان القانوني، وتاريخ العمارة سنة اثنتين وستين وتسع مئة، ٩٦٢هـ — وكان إلى ما قبل عام ١٣٥٨ منفصلاً عما حوله من العمران الذي امتدّ حتى أحاط به من جميع الجهات، بعد إزالة سوره وردم الخندق المحيط به، فاتصل بأحياء المدينة التي اتصل بعضها ببعض. وتغيرت المدينة بما طرأ عليها من العمران، تغيراً عظيماً، كغيرها من مدن المملكة.

الكُوْعُ

– بضم الكاف وإسكان الواو، وآخره عين –: جبل يقع في الشمال الشرقي من دَحْلٍ (أبو سُخَيْل) على الجانب الجنوبي الغربي من شعيب الشَّيْطِ الرِّيَّانِ.

الكُوَيْخَا

– بضم الكاف تصغير الكوخاء^(١٢) – ماء يقع غرب قرية الحناء، في سفح جبل يدعى الكويخا، شمال جبل الأحصن.

الكويكب

تصغير كوكب، ومن معاني الكلمة عين الماء الجارية، ولعل إسم هذا الموضع من هذا – إسم قرية من قرى القطيف، منفصلة عنها في الماضي، أما الآن فقد تجاوزها عمران المدينة.

ونسب مؤلف كتاب «أنوار البدرين»^(١٣) إلى قرية الكويكب السيد حسين الكويكبي وصفه بالعلم، ولم يحدد زمنه، ويظهر أنه قريب العهد.

وجاء في كتاب «دليل الخليج» في الكلام على قرى القطيف: كويكب عند الطرف الجنوبي لمدينة القطيف على بعد ربع ميل جنوب الكوت وعلى بعد مسافة مساوية إلى الداخل من البحر.

قرية مسورة تتكون من خمسين ومئتي منزل، ومعظمها مبنية بالحجارة وبعضها أكواخ والمكان إحدى ضواحي مدينة القطيف، ويعمل السكان بزراعة النخيل وصيد اللؤلؤ. انتهى.

الكُهْفة

وبعضهم ينطقها الكهفا – من هجر آل ناجعة من العجمان ذات نخل وفيها

عين قديمة وآبار أرتوازية، وتقع في الجنوب الغربي من عُرَيْعرة على نحو ثمانية أكيال، بين الصَّرَّار والنُّعيرية، على يمين الطريق للمتجه إلى الصَّرَّار، وهي في منطقة النعيرية.

وقد رت المسافة بينها وبين الدمام في «دليل مدارس وزارة المعارف لعام ١٣٩٨هـ» بمئتين وخمسين كيلاً - هذا على وجه التقريب.

كُهَيْلَة

تصغير كهلة - قال في «معجم البلدان»: موضع في بلاد تميم.

قال الفرزدق:

نَهَضْنَ بِنَا مِنْ سَيْفِ رَمْلٍ كُهَيْلَةً وَفِيهَا بَقَايَا مِنْ مَرَّاحٍ وَعَجْرَفٍ^(١٤)
وقال الراعي:

عَمِيرِيَّةٌ حَلَّتْ بِرَمْلٍ كُهَيْلَةً فَبَيْنُونَةُ تَلْفَى لَهَا الدَّهْرُ مَرْبَعًا
وقال البكري في «معجم ما استعجم»^(١٥) بعد إيراد هذا البيت: عميرية: حي من الأبناء، وكهيلة رملة معروفة هناك. انتهى. والأبناء - هنا فيما يظهر - من بني سعد بن زيد مناة بن تميم.

ويظهر أن كهيلة من نواحي بينونة - التي تقدم الكلام عليها - وأن سيفها في جهات بلاد قطر.

كِيَسُوس

تقدم في الكلام على القطيف أن كلمة (كيوس) تطلق على ما يعرف الآن باسم

خليج القطيف، الواقع بين جزيرة تاروت، ورأس تنورة، على ما ورد في بعض المؤلفات الأعجمية القديمة.

وهذا مما يستدعي التثبت من صحة الكلمة.

(للبحث صلة)

الحواشي:

- (١) : ٣٤٤.
- (٢) في المطبوعة (ثبأت).
- (٣) كذا ورد البيت (وحدثه) وورد البيت في «صفة جزيرة العرب» - ٣٩٧ -
تجائف عن شرائع بطن عمرو وجد به عن السيف الكراع
منسوباً إلى ربيعة بن مقروم الضبي، وهو من قصيدته المفضلية التاسعة والثلاثين قال في وصف
حمار وحش وأتانه:-
إذا ما أسهلا قنت عليه وفيه على تجاسرها أطلاع
تجائف عن شرائع بطن قو وحاد بها عن السبق الكراع
وأقرب منهل من حيث راحا أنال، أو غيازة، أو نطاع
- وكلمة السبق يظهر أنها تصحيف السيف - وكلمتا (وحدثه) و(جديه) يظهر أن صوابها
(وحاده).
- (٤) : ٤٧٩.
- (٥) هو عبيد الله بن زياد حين استعمله معاوية على البصرة.
- (٦) : ٦٠.
- (٧) : ٨٦٥، ١٠٠٠.
- (٨) : ٦٠٠، ٥٩.
- (٩) ديوانه : ٢٠٤.
- (١٠) : ٤١٦/١٥.
- (١١) : ١٩.
- (١٢) الكونخاء هي العين العوراء.
- (١٣) : ٢٧٥.
- (١٤) في ديوانه:
- (١٥) رسم بينونة.
بدأنا بها من سيف رمل كهيلة وفيها نشاط من مراح وعجرف

فضائل أم القرى حقائق ثابتة

تسمو عن ماثورات القصاصين، وموروثات ذوي العواطف

قرأت في إحدى صحفنا (عكاظ ع ٦٩٧١ في ١٤٠٥/١١/٣) خبراً عن تحديد سبعة عشر أثراً ومعلماً تاريخياً في مكة المكرمة، منها:-

١ - مسجد الصحابي سيدنا بلال في جبل أبي قبيس.

٢ - مسجد الخليفة سيدنا أبي بكر الصديق في حي السفلة.

٣ - مسجد خالد بن الوليد في حارة الباب.

٤ - مقبرة السيدة خديجة في الحجون منذ فجر الإسلام.

ثم قرأت كلمة بعنوان: (أشهر المساجد بمكة المكرمة) بتوقيع الأخ الشيخ إبراهيم الراشد الحديثي (عكاظ ع ٦٩٨٦ في ١٤٠٥/١١/١٨) ذكر من بين تلك المساجد:

١ - مسجد أبي بكر الصديق، قال عنه: وهو دار أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حيث أقام بها مسجداً ليصلي فيه ويتعبد، ويقرأ القرآن عندما كانت قريش تضطهد المسلمين في مكة وتعذبهم.

٢ - مسجد بلال بن رباح - رضي الله عنه - قال: وقد أقيم في الموضع الذي كان يتعبد فيه بلال في أعلى جبل أبي قبيس، في شمال شرق الصفا، ويطل على المسجد الحرام والمسعى.

٣ - مسجد حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - في حي السفلة بمنطقة السبع آبار عند لقاء شارع إبراهيم - عليه السلام - مع شارع حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه.

٤ - مسجد الخيف، قال عنه : مسجد الخيف بمنى، ومناسبتة أنه قد تأمرت أحزاب الشرك في العام الخامس الهجري بسفح جبل الخيف بمنى، واتجهت للمدينة ولكن الله تبارك وتعالى نصر رسوله الكريم، وأصحابه، وهزم الأحزاب، فحوّل رسول الله - ﷺ - المكان الذي تأمرت فيه أحزاب الشرك على الإسلام والمسلمين إلى مسجد يعبد الله فيه، فأقيم مسجد الخيف، وهو يقع على المنحدر الشمالي لجبل الخيف على مقربة من الجمرة الصغرى. انتهى .

وما كنت أودُّ إثارة مشاعر بعض الإخوة الذين لا يروق لهم أن يُنظرَ إلى بعض الأمور التي لها أثر عميق في نفوسهم نظرةً بحثٍ وتعمُّقٍ، لإدراك هل لتلك النظرة من الأسباب الصحيحة ما يؤيدها.

ولكنني رأيت الأمر في أيامنا هذه اتَّسع، بحيث اتخذنا من النظرة إلى التراث وإلى الآثار بصفة خاصة ما جعلنا نتسرع في الحكم على أمور لها صلة بتاريخنا القديم، بدون أن نتخذ لذلك الحكم أسسه وقواعده من البحث والدراسة وعمق المعرفة، بعيدين في ذلك عن التأثير العاطفي، أو الاسترسال في الأخذ بما يتناقله القصاصون عن العامة وأشباههم من الأخبار التي لا تقوم على أساس من الحقيقة.

مركز تحقيقات كليات العلوم، ريدى

وأنا لا أهتم كثيراً بأولئك الأخوة الذين سيصممونني وصمة أبرأ إلى الله منها، وهو أنني أريد (أن أسلب مكة كرامتها) ومعاذ الله أن أقصد هذه الغاية السيئة، ومعاذ الله أن يستطيع أي إنسان أن يسلب ما لهذه المدينة الكريمة في نفس كل مسلم من كرامة ومالها من منزلة سامية، لا يجهلها ولا يتجاهلها إلا من أعمى الله بصيرته.

ولكن حفاظي على تاريخ هذه المدينة الكريمة حفاظاً يصونه من التقول والطعن، ويثبت منه الصحيح الذي بإثباته تبذرو هذه المدينة الطاهرة على حقيقتها التي أراد الله لها.

ولا يخفى على كل مؤمن أن كرامة الأوطان وشرفها وفضلها لا يتعدى شيء منها

إلى سكانها، كما أن ما يحدث من السكان من الأعمال أيًا كانت خيراً أو شراً، لا أثر لها في تلك الأوطان. إلا ما نص الشرع الشريف عليه، وثبت بطرق صحيحة، مما لا يتسع المقام للتبسط في إيضاحه.

وبعد هذه المقدمة أعود إلى الإشارة إلى أن كل هذه المساجد التي تقدم ذكرها باستثناء مسجد الخيف، لم أجد فيما بين يدي من المؤلفات التاريخية ما يثبت قدمها قدماً يجعل المرء يحكم بصحة نسبتها إلى من نسبت إليه.

وإيضاح ذلك في أمور:

الأمر الأول: أن مكة - شرفها الله - تصدّى لتدوين تاريخها منذ القرن الثالث الهجري إلى عهدنا هذا علماء معروفون بفضلهم وبعلمهم، لم يغادروا من أخبارها ولم يدعوا من آثارها شيئاً، ومن أقدمهم الأزرقى والفاكهى ومن بعدهما الطبري والفاشي، ثم ابن ظهيرة والقطبي، فقد تصدى هاؤلاء لتدوين تاريخ مكة وذكر ما فيها من الآثار، منذ أقدم العصور حتى القرن العاشر الهجري. وهم لم يقتصروا فيما دونوه على ذكر الصحيح الثابت من ذلك، بل منهم من تساهل في تدوين أخبار تتعلق بإمكانة في مكة لا يجد المعني بدراسة التاريخ ما يعتمد عليه في صحة ما دُون عنها.

ولقد كان من عادة العلماء المتقدمين التساهل في نقل الأخبار المتعلقة بفضائل الأمكنة، وينقل الحكايات والقصص التي تتصل بها بدون تمحيص أو تثبت.

الأمر الثاني: يجب أن لا يغيب عن البال أن ما له صلة بالأمور الدينية يجب التثبت بجميع ما يتعلق به من الأخبار، ومن ذلك المساجد التي تنسب إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فالجزم بأن هذا المسجد منسوب إلى الصحابي فلان من الأمور التي لا ينبغي التساهل فيها، وأنا وإن لم أر في تحديد المواضع الأثرية من قبل إدارة الآثار ما يثير الاهتمام، لأننا اعتدنا في هذا الزمان أن نرى إدارة الآثار تهتم بمواضع قد تعتبرها أثرية، وإن كانت حديثة العهد، كالبيوت التي ذكرت في الخبر الأول، وبيوت أخرى في بعض قرى نجد.

ولكن الذي رأيتُه غريباً وعجيباً هو قول الأخ الحديثي عن مسجد بلال: وقد أُقيم في الموضع الذي كان يتعبد فيه بلال.

ومعروف أن بلالاً - رضي الله عنه - لم يرد في كتب السيرة التي اطلعت عليها أنه اتخذ مكاناً للعبادة، وإنما ورد أن مولاه كان يعذبه في بطحاء مكة حتى اشتراه الصديق - رضي الله عنه - فأعتقه.

وأمر آخر: هو أن بلالاً - رضي الله عنه - كان على درجة من الضعف لا تمكنه من أن ينحصر له مكاناً للعبادة، فيجاءه قريشاً بما يكرهون في وقت طغيانهم، واستضعافهم للمسلمين. وأمر ثالث: هو أن المكان الذي كان يجتمع به المسلمون في عهد الرسالة هو دار الأرقم التي كانت في الصفا، ثم جعلت داراً للحديث، ولعلها دخلت الآن في زيادة المسعى.

أما المسجد الذي في أعلى جبل أبي قبيس، فقد ذكر مؤرخو مكة ومن آخرهم محمد بن ظهيرة مؤلف كتاب «الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف» ألفه في منتصف القرن العاشر الهجري، قال في ذلك الكتاب - ص ٣٣٢ - :
ومسجد على جبل أبي قبيس يقال له مسجد إبراهيم، وليس الخليل - عليه السلام - وإنما هو إبراهيم القُبيسي، إنسان كان يسأل عنده، ذكره الأزرقى. انتهى.

وكذا ما ذكر الأخ عن مسجد أبي بكر الصديق، ونصه: دار أبي بكر حيث أقام به مسجداً ليصلي فيه ويتعبد ويقرأ القرآن عندما كانت قريش تضطهد المسلمين في مكة وتعذبهم.

لا أدري من أين أتى الأخ بهذا الكلام، فأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لا يسعه في ذلك العهد، أن ينفصل عن المكان الذي كان يجتمع فيه المسلمون بالرسول ﷺ وهو دار الأرقم، حتى أسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فعز الإسلام، واستطاع المسلمون أن يصلوا في المسجد الحرام، ولم يعرف مسجداً في مكة في عهد النبي - ﷺ - غير المسجد الحرام.

ويلاحظ أن أبا بكر الصديق كانت له دار ليست في هذا الموضع الذي نُسب

إليه المسجد الذي فيه، بل كانت في زقاق الحجر - زقاق العطارين - الذي فيه دار خديجة ومولد فاطمة، على ما حدد تقي الدين الفاسي في كتابه «شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام» - ج ١ ص ٢٦٢. وذكر في موضع آخر من هذا الكتاب المسجد المنسوب إلى أبي بكر بأسفل مكة، ولكنه أورد الخبر بصيغة (ينسب لأبي بكر) ويقال: إنه من داره التي هاجر منها إلى المدينة والله أعلم - كذا قال حين أورد الخبر بصيغتي (التمريض) ينسب ويقال، مع أن الأزرقى في كتابه «أخبار مكة» - ج ٢/ ص ٢٥٧ - لم يذكر لأبي بكر إلا داراً واحدة في خط بني جمح، قال عنها: بيت أبي بكر الذي دخله رسول الله ﷺ ومنه خرج النبي ﷺ وأبو بكر الصديق إلى ثور مهاجراً، وحدد هذه الدار في ناحية أجياد، بعيدة عن الموضع الذي في أسفل مكة.

أما مسجداً خالد بن الوليد وحمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنهما - فلا أدري على أي مصدر اعتمد هاؤلاء الذين نسبوهما إلى الصحابين الجليلين، والمؤلفات التي بين أيدينا في تاريخ مكة لا تذكرهما، وأعني بالمؤلفات الكتب التي ألفها المحققون من مؤرخي مكة كالأزرقى والفاسي والطبري.

أما ما جاء في كتب المتأخرين من الرحالة والمؤرخين الذين يتلقفون الكلام من كل قائل بدون تثبت أو تحقيق، فهاؤلاء لا يصح الاعتماد على أقوالهم، وخاصة فيما يتعلق بتاريخنا الإسلامي القديم الذي يجب أن تسد جميع الثغرات التي تسبب الطعن فيه.

ولن أزيد القول عن مقبرة خديجة - رضي الله عنها - على ما سبق أن أوضحته في حديث لي كان مثار تعليق كثير من الإخوة، وملخصه أن قبر خديجة لم يُعرف إلا في القرن التاسع الهجري بطريق رؤياً منامية، رآها بعض المتسبين إلى الصلاح، فأخبر بها أمير مكة، الذي أمر ببناء قبة في المكان الذي تخيل ذلك الرائي أنه انبعث منه نور، أوله أمير مكة بأنه انبعث من قبر سيدتنا خديجة!!

فهل على مثل هذا القول يصح أن يُبنى تاريخنا؟!

وعجبت من قول الأخ الحديثي عن مسجد الخيف: (إنه تأمرت أحزاب
الشرك في العام الخامس الهجري بسفح جبل الخيف بمنى وأن الرسول ﷺ حوّل
ذلك المكان إلى مسجد يعبد الله فيه).

لا أدري من أين استقى هذا الخبر، ولكن الذي أدريه أن مسجد الخيف
مسجد عظيم الفضل، وردت فيه أحاديث وأخبار، وفيه صلى رسول الله ﷺ وقد
عُني متقدمو المؤرخين بتاريخ هذا المسجد، وبتحديد المكان الذي صلى فيه
الرسول ﷺ انظر «شفاء الغرام» ج ١ ص ٢٦٣ وما بعدها.

وأحشى أن يكون الأخ اشتبه عليه خَيْفُ بني كنانة بخَيْفِ مَنى، ولم يلاحظ أن
كلمة (الخيف) في الأصل اللغوي: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل
الماء، ولهذا فهو يطلق على مواضع كثيرة تتصف بتلك الصفة، منها خيف مَنى،
وخَيْفُ بني كنانة وهذا هو الذي ورد في الحديث عن أسامة بن زيد قال: قلت يا
رسول الله أين تنزل غداً في حَجَّكَ؟ قال: «هل ترك لنا عقيل منزلاً؟ نحن نازلون
بخيف بني كنانة، حيث تقاسمت قريش على الكفر» يعني المحصب. ومعروف أن
المحصب هو الأبطح — بطحاء مكة —.

ويبقى النظر في نسبة تحويل ذلك الموضع إلى مسجد، هل ثبتت عنه — عليه
الصلاة والسلام — أم لا؟ ومَرَدُّ ذلك إلى علماء الحديث الذين حفظوا كل ما أثر
عنه — ﷺ من أقوال أو أفعال، فهل ذكروا ذلك؟

حمد الجاسر

رحلة الوزير الشرقي الإسحافي المغربي إلى الحج سنة ١١٤٣ هـ

- ٦ -

ثم تحدث صاحب الرحلة في فصل جعل عنوانه : (فصل من الفقه في مناسك الحج على جهة الاختصار)، تحدث عن مسائل فقهية تتعلق بالحج، نقل كثيراً مما جاء في هذا الفصل عن كتب الفقه على مذهب الإمام مالك - رحمه الله .
وأورد بعد ذلك فصلاً عنوانه : (فصل في حدود الحرم)، وأورد بعده كلاماً يتعلق بالمناسك (بطريق الإشارة إلى معانيها) مما نقله من «مناسك الشيخ خليل» - رحمه الله .

وأورد بعد هذا أسئلة في الحج منها : -

- ١ - ما الحكمة في أنه وضعها بوادي غير ذي زرع ؟
- ٢ - ما الحكمة في الوقوف بعرفة والمشعر الحرام دون الحرم ؟
- ٣ - ما الحكمة في العُدْوِ والهَرْوَلَةِ ؟
- ٤ - ما معنى قوله الجمعة حج المساكين .
- ٥ - لما سمي عرفة عرفة ؟ وسمي البيت العتيق عتيقاً ؟

ثم بعد إيراد الأجوبة على هذه الأسئلة، قال : ذكر خروجنا من مكة المشرفة : (كان خروجنا من مكة المشرفة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة بعدما طوفنا طواف الوداع، وودعنا البيت العتيق وداع أحبة راعها - والشمل منتظم - داعي الوداع، فمن باك ومعتق، وخرجنا من باب كُدَى من أسفل مكة عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، واقتداءً بفعله، وكان الركب المصري قد خرج قبلنا، فوجدناه قد ضرب مضاربةً بوادي فاطمة - رضي الله عنها^(١) - وفي هذا

اليوم توفي الفقيه المؤدب لولد سيدنا - نصره الله - السيد بلقاسم النسولي، تشوم (٩) في أثناء الطريق، وكان اليوم حاراً، توفي قريباً من قبر السيدة ميمونة زوج النبي - ﷺ - ومشهداها على طريق الحاج^(٢)، وحمل إلى وادي فاطمة، حيث نزل الركب في هذه المرحلة، ودُفِن هنالك، ومن الغد ارتحلنا الركاب، وكان مسيرها على طريقها الأولى، داراً داراً إلى بَدْرٍ، فأخذ الركب ذات اليمين للمتوجه للمدينة المشرفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، على طريق الصفراء، فكان المبيت بالموضع المسمى بالجُدَيْدَة^(٣)، ومنه إلى قبور الشهداء، ومنها أصبحنا على البئر المعروفة ببئر علي، وبه آثار بنيان ورسوم دائرة، ودون المدينة المشرفة على نحو من مسافة نصف يوم وادي العقيق وليس به ماء ولا عمارة، وحصاه يَنْحُو نَحْوَ الحمرة، وهو وادي ذي الحَلِيفَة، والعقيق خزرُ أحر، واحده عقيقة، وقال ابن دريد: كل شَقٍّ في الأرض فهو عقيق، وعَقَّ الشَّيْءُ شَقَّهُ، والعقيق أيضاً وادي المدينة الذي فيها أموالها ونخيلها، وذو الحليفة على طريق المدينة بنحو سبعة أميال، وهو بطحاء سهلة لينة وفيها أوحى إلى رسول الله - ﷺ - : «إِنَّكَ بِطَحَاءَ مباركة»، وهي مَهْلُ أهل المدينة كما تقدم.

وفي يوم (٤) من ذي الحجة وصلنا إلى معهد الفضائل المشهورة، ومعقد ألوية الدين المنشورة ثم تحدث عن طيبة الطيبة وأورد أقوالاً كثيرة عن متقدمي العلماء تتعلق بفضلها وبما ينبغي أن يتصف به القادم إليها، وغير ذلك مما له صلة بالزيارة، وكل ما أتى به من هذا القبيل لا يخرج عما ذكره أهل عصره، مما لا داعي للإطالة بذكره.

وأورد بعد ذلك فصلاً في فضل البقيع، وأشار إلى مَنْ قُبِرَ فيه من الصحابة فمن بعدهم، وأورد أشعاراً منها قصيدة للسيد محمد بن سعيد بن الشيخ عبد الكريم الأنصاري الخزرجي المدني أنشده إياها وكتبها له بخطه، مطلعها:

لعثمان ذي النورين تَفْدِي الجوانحُ وتَسْعَى إليه العارفون الجحاجحُ

وقال: إنه أنشدني في هذه القصيدة بمحضر أبيه الشيخ عبد الكريم في دارهم المعروفة بدار أبي أيوب الأنصاري.

وتحدث عن أبناء الشيخ عبد الكريم الأنصاري وأقاربهم فقال: ولصاحب القصيدة المذكورة أخ اسمه محمد أبو البركات بن الشيخ عبد الكريم المذكور وأخوهما.

وذكر من لقيه بالمدينة الفقيه الأديب عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة الشريفة سابقاً، الخطيب والمدرس والإمام بحرم خير الأنام، وأورد له قصيدة في صاحب الرحلة.

وذكر بعض الأمكنة التي زارها في المدينة، وأورد بعد ذلك فصلاً في ذكر فضل جبل أحد، وانقطع الكلام في أوله، وبهذا انتهى الموجود من تلك الرحلة.



الحواشي:

- ١ - نسبة الوادي إلى فاطمة - رضي الله عنها - ليست ثابتة من الناحية التاريخية، وليس فيها اطلعت عليه من المؤلفات ما يوضح من المقصود بهذا الاسم، واسم الوادي قديماً (مر الظهران).
- ٢ - قبر السيدة ميمونة - رضي الله عنها - في سرف، بقرب ميقات العمرة لأهل مكة المعروف باسم التنعيم.
- ٣ - الجذيلة من قرى الصفراء التي لا تزال معروفة.
- ٤ - بياض في الأصل.

رحلة الوزير الشرقي الاسحاقي إلى الحجاز

كانت مجلة «العرب» نشرت القسم المتعلق بالحج من رحلة الوزير محمد الشرقي الاسحاقي سنة ١١٤٣هـ في سنتها الـ ١٩ ص ٧٣٦ والـ ٢٠ ص ١٠٨ ، ٢٦٤ ، ٣٨٦ ، ٥٢٨ ، ٦٤٧ ويظهر أن استاذنا الجليل محمد بن عبد العزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس لم يطلع على ما نشر . وقد أتخف مجلة «العرب» ببحث ضاف يعتبر ملخصاً وافياً لتلك الرحلة وقدم له بكتاب هذا نصه :

فاس في : ٢٥ ذي القعدة عام ١٤٠٥ الموافق : ١٣ غشت سنة ١٩٨٥

إلى حمد الجاسر

السلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته

وبعد فإني لأجد نفسي متساقاً إلى الكتابة إليك بدافع روعي لا أدري كيف
أصوّره أو أعبر عنه .

إنه باعث أجده في أعماقي منذ سنوات قبل أن تجمعني بكم صلة الكتابة وقبل
أن أتوصل أنا وخزانة القرويين ببعض مؤلفاتكم المهداة إلينا .

ولعل السبب في ذلك مرجعه إلى أنكم قد وجهتم عنايتكم لدراسة أحوال مكة
المعظمة والمدينة المشرفة ودراسة الرحلات الحجازية التي قام بها عدد من العلماء
والأولياء والصالحين فاستمددتم بسبب ذلك ، نفحات إلهية أعانتكم على عملكم
وجعلتكم محبوين لدى كل من يقدر العلم ويعرف قيمة أهله خصوصاً بالنسبة إلى
الذين جعلوا مدار اهتمامهم على مركز الوحي وطريق الوصول إليه .

وإني لأشكركم من جديد على الكتابين اللذين أرسلتموهما لنا وللخزانة وهما

المتعلقان برحليتي ابن عبد السلام الدرعي وبرحلة العياشي، وأبارك الطريقة التي اخترتموها في تقريب محتواهما لأن اختصار الأصول أصبح معيناً على الاستفادة منها وعلى محاولة البحث عنها للاطلاع عليها من جميع نواحيها.

ولقد قرأت الجرد الذي ذكرتموه لعدد من الرحلات في التمهيد الذي وضعتموه للملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي فدل على أن عدد الرحلات كان كثيراً ومفيداً إلا أنني لم أجد من بينها رحلة قيمة كتبها أحد الفقهاء المغاربة في أواسط القرن الثاني عشر الهجري وهي رحلة العالم الاجل، والكاتب المبجل، السيد محمد الشرقي الاسحاقي الذي صاحب في رحلته عام ١١٤٣هـ السيدة اخنثة زوجة السلطان المولى اسماعيل، وأم السلطان المولى عبدالله رحمهم الله، وقد حجَّ معها آنذاك حفيدها سيدي محمد رغم صغر سنه وهو الذي أصبح فيما بعد يُعرف بالسلطان سيدي محمد بن عبدالله أو محمد الثالث، وكان من أعظم ملوك الدولة العلوية قدراً ومن أحرصهم على حماية العلم ونشره وتيسير استنساخ كتبه.

وفي خزانة القرويين نسخة من هذه الرحلة مكتوبة بخط مغربي جيد، تحمل الرقم ١٢٥٨ وقد كنت كتبت في السنة الماضية بحثاً للتعريف بها وبمؤلفها اقتبسته من صلب الرحلة، وحاولت أن أبرز فيه الجانب الثقافي والأدبي وأن أتعرض لبعض الإجازات التي نالها المؤلف من بعض علماء مكة رحمهم الله.

وقد أذيع هذا البحث على أمواج الإذاعة الوطنية المغربية وربما سينشر في شهر مارس ١٩٨٦ ضمن العدد الخاص الذي تصدره مجلة «دعوة الحق» حول عيد العرش المجيد، وأوافيكم الآن بنسخة منه قبل تهذيبه وإعداده للنشر الكتابي لتطلعوا على هذه الرحلة ولتروا بعض نماذجها.

وقد اعتنى بعض الباحثين المغاربة بهذه الرحلة فلخصها المؤرخ السيد عبد الرحمن ابن زيدان في كتابه «اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» (ج ٥ ص ٥٤٢) ونشر جزءاً منها يتعلق بليبيا الدكتور عبد الهادي التازي وهي لحد الآن لم تنشر نشرأ كاملاً أتمنى أن تطلعوا عليها وأن تقارنوا بينها وبين مختلف

الرحلات التي قرأتم لتضعوا هذا الكاتب في عداد من تؤرخون لهم جازاكم الله
وأعانكم والسلام.

محمد بن عبد العزيز الدباغ

وترى مجلة «العرب» أن تتحف قراءها بنشر ما أفضل به الاستاذ الجليل محمد
بن عبد العزيز الدباغ وافيًا، إذ لديه من سعة الاطلاع ومن العلم والمعرفة التامة
بالرحلة وصاحبها ما يجعل لما تحدث به عنها من القيمة العلمية ما هو جدير بأن
يقدم، وها هو نصه:

(١)

في يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف
بعد صلاة الجمعة خرجت السيدة خنثة بنت بكار والدة السلطان المولى عبدالله
مع حفيدها الصغير سيدي محمد بن عبدالله من مدينة مكناس عاصمة المملكة
المغربية آنذاك متوجهة إلى البقاع المقدسة وهي في شوق ولهفة لتحقيق هذه الأمنية
التي طالما حنت إليها وتمنت إنجازها.

وكان في مصاحبته وفد يتكون من بعض العلماء والموظفين الذين وثق الملك في
علمهم وأخلاقهم وحصافة عقولهم أمكننا التعرف على بعض أعضائه من خلال
الرحلة التي دونها السيد الوزير محمد الشرقي الاسحاقي الذي كان له الفضل في
تسجيل مراحلها وتدوين أخبارها ووضع تقارير كافية حولها زيادة على ما أبداه من
الاهتمام العلمي والصوفي الدال على ما كان للمغاربة من العناية بمختلف الفنون
والعلوم ومن التشوق إلى الاطلاع على أحوال المسلمين وتتبع أخبارهم وعاداتهم
وتسجيلها تسجيلًا يفيد الذين يرغبون في التوجه إلى الحج سواء من الناحية
الجغرافية أو التاريخية أو الأدبية أو العلمية أو غير ذلك من مختلف الأحوال الثقافية
المفيدة.

كان الوفد يتكون من قائد الركب الحجازي السيد عبد الخالق عدیل باعتباره المكلف الرسمي بشؤون الحج ومن السيد الوزير محمد الشرقي الاسحاقي المؤلف لهذه الرحلة والغالب أنه كان مسؤولاً عن وضع تقرير كامل حولها ليقدمه إلى السلطان المولى عبدالله إثر رجوعه ومن ابن اخته الطالب الفقيه السيد العربي بن محمد ومن القاضي السيد بلقاسم بن الفقيه سيدي سعيد بلقاسم العميري (٤٨ - ١٤٣ - ١٨٠) (الاتحاف ج ٥) ومن الفقيه السيد أحمد المكودي (٨١) ومن الشيخ محمد بن محمد بن أبي بكر المرباط الدلائي الذي توفي بليبيا قبل الوصول إلى مكة ومن مؤدب ولد السلطان السيد بلقاسم التشولي الذي وافته المنية في اليوم التاسع عشر من ذي الحجة بعد الانتهاء من مناسك الحج .

وكان مع الوفد جماعة من عبید سيدي البخاري يحسنون الركوب على الخيل ويتفرون على مهارة في اللعب بالبارود ولهم دربة عسكرية فائقة كلفوا بحماية الركب وبيظهار براعة المغاربة في الفروسية كلما احتاجوا إلى ذلك وقد كان دورهم فائقاً في ليبيا أثناء وصول الركب الحجازي إليها مما جعل كل الذين شاهدوهم يبدون إعجابهم بقدرة المغرب في الميدان العسكري وفي الدربة على ركوب الخيل وممارسة استعمالها.

ولقد برع السيد الاسحاقي في تدوين مختلف المراحل وأبدى عناية فائقة بكثير من الدقائق العلمية والأدبية وأكثر من نقل الاشعار ومن نقل النصوص العامة المتعلقة بوصف بعض الأقاليم أو بوصف بعض المزارات مما يدل على أن الكتاب كان يجمع بين الطريف والتليد فهو لا يقتصر على المشاهدات الفردية ولكنه يضيف إليها أحياناً ما سجله السابقون إذا كان في نقله فائدة أو في تقديمه منفعة عائدة وفي خزانة القرويين نسخة من هاته الرحلة مسجلة تحت عدد ١٢٥٨ مكتوبة بخط جيد واضح في حجم متوسط تبلغ صفحاتها ٢٧٢ حبسها المولى عبدالله على هاته الخزانة عام ١١٥٦هـ .

ولقد حاولنا من خلال هاته الرحلة أن نستشف بعض الجوانب من حياة مؤلفها وأن نتبع أحواله وأن نطلع على مؤهلاته الثقافية التي حولت له القيام بهذا العمل

الجليل فهو فيما نعلم لم يحظ بترجمة خاصة به إذ غالباً ما يذكر مع ترجمة السيدة خنثة بنت بكار حينما يتحدث عن رحلتها إلى المشرق أو يذكر مع السلطان السيد محمد بن عبدالله حينما يشار إلى طفولته وإلى مصاحبته لجده في رحلتها هاته .

ففي كتاب الاتحاف مثلاً نجد المؤرخ الشريف سيدي عبد الرحمن بن زيدان يتعرض لهاته الرحلة أثناء ترجمته للسيدة خنثة ذات الفضل والعلم والأدب ويقوم بتلخيص دقيق جداً لجميع مراحلها من بدايتها إلى النهاية ولا يفصل الحديث عن مؤلفها ولا يذكر شيئاً من ثقافته وسيرته وترجمته مما جعلنا نفكر في محاولة البحث عن هذا العالم الجليل عسانا بذلك أن نبرز بعض خصائصه وسماته وأن نتعرف على ثقافته وأحواله واعتمدنا في ذلك على ما نستشفه من الرحلة ذاتها ففيها جوانب متعددة صالحة للتعريف به ولاظهار اهتمامه الفكري وسلوكه الذاتي لقد كان والده من أتباع السيد الشرقي المعجبين به المحبين له المتفانين في نهج طريقته لذلك سمى ابنه به ليتفاءل بهذا الرجل الذي كان المغاربة يجعلونه شعاراً صوفياً مقدساً ولم يكتف بالتبرك الاسمي فقط بل وجهه للمعرفة وحبب إليه العلم واعتنى بتربيته وحفظه القرآن وجعله من رواد المجالس العلمية سواء في حلقات الدروس التي تعقد بالربط والزوايا أو في حلقات الدروس التي كانت توجد بالمدن الكبرى كمدينة فاس مثلاً .

وكانت المجالس العلمية الناجحة آنذاك تستمد عناصر وجودها من العلماء الذين نزحوا عن الزاوية الدلائية وتفرقوا بين المدن والقرى فكان لهم فضل كبير على ازدهار الفكر الحي ونشر أصول الأدب وأصول الفقه ومن أشهرهم حماسة وعلماء وموسوعية أبو علي الحسن اليوسي الذي فاقت شهرته الآفاق وتداولت كتبه شتى الجهات والذي أصبح الاستمداد من علمه دليلاً على الكفاية وبرهاناً على النجابة والدراية .

وفي حديقة مجالسه استمد الاسحاقي كثيراً من علومه وآدابه يبدو ذلك في

طريقة آدائه وفي أسلوب عرضه وفي مزجه بين الفقه والأدب ولقد أشار إليه أثناء الرحلة وأثنى عليه وجعله من بين شيوخه إلا أنه لم يذكر مكان الأخذ عنه ولا زمن ذلك الأخذ.

الغالب أن هذا التلقي كان في السنوات الأولى من دراسة الإسحاقى فلقد نزع الحسن اليوسي عن الزاوية الدلائية عام ١٠٧٩ هجرية بعد قضاء المولى الرشيد عليها وحينئذ توجه إلى فاس ولكنه لقي عنتاً من بعض طلبتها الشيء الذي دفعه إلى عتابهم وإلى إظهار القلق من موقفهم فقد قال رحمه الله (الاعلام ج ٣ ص ١٥٧).

ما أنصفت فاس ولا أعلامها علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا راعي سنين إلى الغمام الصيب

وهما بيتان معبران عن إحساس دفين في أعماق الشاعر وهما خاليان من أي بذاءة ولكنها رغم ذلك أثارا حمية طالب ما زال في عنفوان شبابه هو السيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي فقال:

بل أنصفت فاس ومن إنصافها كبيتها أبداً سقوط المدعي والمعجب
تنفى الدجاجل عاجلاً أو آجلاً منها كنفي قريظة من يثرب
وهو رد قاس ما كان ليتحملة اليوسي ولا ليقبله ولا ليرضى الإقامة في مدينة أساء
إليه بعض طلبتها فاضطر إلى مغادرتها وإلى التوجه إلى البادية حيث أصبحت
مجالسه قبلة الطلاب من مختلف القبائل وصارت دروسه نبراساً يستضيء به كل
الذين كان لهم ولوع بالثقافة الإسلامية النافعة ولهذا قال فيه أبو سالم العياشي
(النبوغ ج ١ ص ٢٨٦):

من فاته الحسن البصري يدركه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

وسواء كان تلقي الإسحاقى أيام إقامة اليوسي بفاس أو بعدها فإن ذلك لا

يتصور إلا أيام الشباب لأن اليوسي توفي عام ١١٠٢ والرحلة التي قام بها الإسخاقي كانت عام ١١٤٣ فبين الرحلة وموت اليوسي إحدى وأربعون سنة وأيام التلقي إنما كانت بين ١٠٧٩ وبين ١١٠٢ ولهذا نرجح أن الإسخاقي لم يقم بالرحلة إلا بعد أن تجاوز الستين من عمره وقرب من السبعين.

وعلى كل حال فإن الإسخاقي كان يشير إلى اليوسي إما مباشرة أو بواسطة، وفي كلتا الحالتين كان يقول قال شيخنا أو الله در شيخنا.

(٢)

لقد سبق لنا أن قلنا إن الإسخاقي قد تلقى بعض دروسه عن الشيخ أبي علي الحسن اليوسي وأنه قد أشار إليه في رحلته ونعته بأحسن الأوصاف سواء كانت الإشارات مباشرة أو غير مباشرة.

فمن الإشارات المباشرة تحدّثه عنه أثناء التعقيب على رحلة العبدري فقد لاحظ الإسخاقي أن العبدري كان يندد بأهل مصر لأنهم كانوا ينوهون بالإمام الشافعي ويغفلون ذكر غيره من الصحابة وأهل البيت النبوي مع أنهم أولى بالاهتمام فقرر أن هذا التنديد لا محل له لأمرين (١١١).

أولاً: لأن خفاء مشاهد بعض الصحابة لا غرابة فيه واستدل بقول الشاعر:

ليس الخمول سعيار عدم علي امرئ ذي جلال
قليلة القدر تخفى وهي خير الليالي

ثانياً: لأن الإظهار والإخفاء أمر إلهي ليس للعبد فيه تَعَمُّلٌ فمن أظهره الله للناس ظهر حياً وميتاً ومن أخفاه خفي . . وهنا قال والله در شيخنا أبي علي الحسن اليوسي رحمه الله في قوله من قصيدة يمدح بها الشيخ أبا يعزى نفع الله به .

ماذا طوت منهم الغبراء من نجب كالشرفية إذ تطوى بأغساد
لو التقينا لأسعدنا بأوجههم كما الأولى عاشروا فازوا بإسعاد

وأما الإشارة غير المباشرة فتوجد حين الحديث عن مصر وعن ضياع العلم بين أهلها فهو قد لاحظ ضعف كثير من علماء الأزهر وذكر أنه حضر عدداً من

المجالس بهذا الجامع فما وجد ما يشفي الغليل ولا ما يبرئ العليل ثم قال وبالجمل فاعلم بالبلاد المشرقية كغيرها قد وقف على ثنيات الوداع وهمّ مزنه بالاقلاع وآزر ملاحظته ويقول: وأخبرني بعض أصحابنا أنه سمع شيخنا أبا علي الحسن اليوسي بعدما رجع من حجته يقول ما بقي بالبلاد المشرقية من تشد إليه الرحال في طلب العلم وما راء كمن سمع.

لم يكن الإسحاق يهمل الرواية في الأخبار إلا أنه كان يذكر أحياناً أسماء من يروي عنهم وكان يكتفي أحياناً بالإشارة إلى جنسهم أو إلى حَيْثِيَّتِهِمْ كقوله رويت عن بعض المغاربة أو أنشدت بعض أصحابي وما أشبه ذلك.

وتجتمع الظاهرتان معاً فيما يأتي فهو يقول مثلاً أنشدني بعض المغاربة للشيخ المحدث الفاضل فتح الدين أبي عمر بن سيد الناس رحمه الله:

بالله إن جُرْتَ بَوَادِي الْأَرَاكِ وَقَبِلْتُ عِيدَانَهُ الْخَضِرُ فَاكِ
فَابْعَثْ إِلَى الْمَمْلُوكِ مِنْ بَعْضِهَا فَإِنِّي وَاللهُ مَالِي سَوَاكِ
ثم يقول وأنشدته لبعضهم

جَعَلْتُ هَدِيَّتِي لَكُمْ سَوَاكِ وَلَمْ أَقْصِدْ بِهَا أَحَدًا سَوَاكِ
بَعَثْتُ إِلَيْكَ عَوْدًا مِنْ أَرَاكِ رَجَاءً أَنْ أَعُودَ وَأَنْ أَرَاكِ

وأنشدته لصاحبنا الفقيه الأديب السيد محمد ابن زاكور الفاسي رحمه الله:

أَبْغِي السَّوَاكِ وَلَا أَرُومُ سَوَاكِ سَبْحَانَ يَا بَدْرُ الَّذِي سَوَاكِ
فَلَمَّاكَ يَمْتَهِنُ السَّوَاكِ وَلَا رَشَا يُغْنِي لِمَاءُ عَنِ السَّوَاكِ سَوَاكِ،

ومن المعلوم أن ابن زاكور المشار إليه قد توفي عام ١١٢٠ هـ وهو قد كان علماً من أعلام الفقه والأدب بالبلاد المغربية وكانت له عناية بشرح النصوص وتأليف الكتب البلاغية والأدبية فهو قد شرح قلائد العقبان لابن خاقان وشرح لامية العرب وهو صاحب الديوان الشهير الذي أسماه الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض.

ومن خلال بيتيه السابقتين يتجلى لنا حبه للجناس وتعمُّده لاستعماله سيراً على نهج البديعيين الذين كان لهم ولوع بذلك فكانوا يتبارون في تنويعه وتلوينه .

إن الإسحاقي في رحلته لم يتعرض لذكر جميع شيوخه أو جميع أصدقائه بحيث لو حاولنا تحديد أسمائهم أو معرفة أخبارهم لتعذر علينا ذلك إلا أن اعتزازه بشيخه اليوسي وإشارته لصاحبه ابن زاكور لما يدل على أن عنايته بالفقه كانت ممزوجة بعنايته الأدبية العامة وتظهر آثار هاته العناية فيما كان ينتقيه من موضوعات أو فيما يشير إليه من كتب أو فيما يحلله من نظريات أو فيما يجول فيه من آراء سواء كانت تتلاءم مع عصره أو كانت معبرة عن ثقافة سابقة .

إن ثقافته العامة كانت تدل على اعتنائه بالتاريخ والسيرة النبوية وعلى اعتنائه بالأدب والفقه ويتجلى ذلك فيما ينقله من أشعار وفيما يتعرض له من أحوال وفيما يشير إليه من أقوال فقهية متعددة تدل على خبرته بالفقه المالكي وبيعض القوانين الفقهية في المذاهب الأخرى .

ويبدو من خلال ما كتب أنه كان يدعو إلى الفهم والتأمل وسعة الخاطر مع الاعتزاز بالكرامة النفسية والإفتخار بالهمة الذاتية فليس هناك ما يفسد العلم مثل الحفظ الآلي الذي لا يكون معه تدبر ولا قدرة على المناقشة والمعارضة وحضور البديهة .

وإن نظرة في هاته الرحلة لترسم لنا زيادة على ما أطلعنا عليه صورة من سلوكه وأخلاقه وسلامة ذوقه ورقة حوارهِ كما تبرز لنا قدرته على السخرية اللاذعة التي لا بذاءة فيها ،

ومن طبيعته في تأليفه أنه يشير إلى المصادر التي استفاد منها سواء فيما يتعلق بالرحلات السابقة التي كانت متداولة في المغرب كرحلة أبي محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التيجاني التونسي ، (في أوائل القرن الثامن للهجرة لمحات من تاريخ العرب ٣٠٠ (ظ / ١٠٥٧٨) ، وكرحلة البلوي وكرحلة العياشي وكرحلة الغرناطي وكرحلة ابن جبير وكرحلة العبدري أو فيما يتعلق بكتب السيرة والحديث

وتاريخ الصحابة كالشفا للقاضي عياض والروض الأنف للسهيلي والاستيعاب لابن عبد البر والإصابة لابن حجر ودرر السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة للسيوطي أو فيما يتعلق بالفقه كالبيان والتحصيل لابن رشد والمقدمات له أيضاً وواضحة ابن حبيب وبعض المناسك المشهورة لمختلف الفقهاء زيادة على اهتمامه بكتب اللغة التي ذكر أسماء بعضها.

ولم يكن المؤلف في رحلته مندفعاً اندفاعاً يلهيه عن التحكم إلى العقل ولعل السبب في ذلك راجع إلى كونه لم يكتب الرحلة إلا بعد أن خبر الحياة فاستأنس بتقلباتها وأهوالها وتعلم منها أن الإندفاع العاطفي لا يؤدي أكله إذ لا بد من الاستخدام العقلي ومن التحري في الأحكام ومن مراعاة مقتضيات الأحوال وإلا كانت الأحكام عبيثة لا فائدة ترجى من ورائها.

وليس معنى هذا أن المؤلف كان مسالماً إلى أبعد الحدود فهو بطبيعة الحال كان يقلق كغيره إذا وجد ما لا يرضيه إنما طريقة التعبير والأداء هي التي كانت تصور نضجه العقلي وما يمتاز به من قدرة على التبليغ الهادف الهادي الذي يجعلك تستأنس به وتعيش معه في لذة فنية ممتعة تجمع بين روح الأديب وعقل العالم ولا أدل على ذلك من قصة طريقة كتبها بأسلوب ساخر يكاد يكون أسلوب الجاحظ في سبر الأغوار وفي التحليل النفسي الدقيق إنها قصة رجل مصري أراد أن يتقرب إليه وإلى الوفد الذي معه وأن يستمنحهم عن طريق المدح والارتزاق بالشعر وكان الهدف عنده من كتابة هاته القصة إظهار بعض الجوانب المتعلقة بحب المال وبالحرص على اكتسابه بأي صورة كانت في المجتمع المصري آنذاك وأن يؤيد بذلك بعض الأوصاف التي وصف بها الرحالة العبدري أهل مصر هذا مع العلم بأن العبدري في كتاباته العامة كان مندفعاً مغالياً.

(٣)

أراد التطاول على الشعر وحاول التملق إلى الوفد المغربي مما جعل الإسحاقى رغم حصافة عقله ورصانة سلوكه أن يكتب هذا الوصف الذي - اعتبرناه داخلاً في إطار الأسلوب الجاحظي نظراً لما يحمله من تحليل نفسي لكثير من الصور

الشبيهة بهذا الرجل الموصوف بالطمع والجشع قال المؤلف (١٣٨) «ومن أعجب الملق والطمع الذي وصفهم به صاحب الرحلة المذكورة (ويشير بذلك إلى العبدري) ما شهدته من بعض من ينتحل العلم منهم قصدونا إذ سمعوا بخبرنا أننا من جملة كتاب السلطنة بالمغرب عمره الله بوجود مولانا نصره الله مادّين أيدي القانعين والمعتزين فرضخت لهم على قدر الميسور ثم تتابعوا وتراسلوا حتى عالت فريضتهم وأخرجتنا سنتهم وفريضتهم فانحزنا عنهم إلى حيز الإهمال وأوليناهم أذنًا صماء وتشاغلنا عنهم ببعض الأشغال تفادياً منهم فبينما نحن في ذلك ما شعرنا يوماً حتى دخل علينا شيخ على رأسه عمامة مفرطة الطول والعرض وجوخة يسحبها على الأرض طويل السبال يمشي مشية مختبل أو مختال فسلم وهش وبش من تلقاء نفسه ورفع يديه وقرأ فاتحة ودعا لنا ولنفسه بكل سائحة من أمينة وبارحة ثم أخرج قصيدة امتدحنا بها هي إلى الهجو أقرب فجعل يقرأها حتى فرغ منها فناولنا إياها فتأملناها فإذا هي عن الإعراب في غاية الانحراف، محتوية على المتقيات الأقواء والإجازة والإصراف، فقلنا له: يا شيخ لم رفعت هذا وحقه النصب فقال نعم رفعت لإقامة الوزن فقلنا له أيجوز لك أن تلحن لإقامة الوزن فقال غيره يا سيدي ثم قام وتولى وكان هذا الشيخ جاء راكباً على حمار نزل عنه في وسط الحوش الذي به بعض قشنا وطلع إلينا إلى المقعد الذي كنا فيه فرأى الحمار بردعة صغيرة هنالك والموضع فارغ ما فيه أحد فقبض عليها بأسنانه وقصد باب الدار خارجاً بها فخرج الشيخ وراءه يجري حافياً فأدركه قرب من الخروج إلى شارع الطريق فردده ورد البردعة فأغربنا في الضحك وما عرفنا من أيهما نعجب من الشيخ أم من حمارة والناس يقولون: قلب الجواد على قلب مولاه».

فهذه الحكاية تعتبر من أقسى ما يهجي به شخص والدع ما يوصم به إنسان فقد وسمت هذا الرجل بالجهل والدناءة وسوء الإلحاح وعدم القدرة على التمييز بين الجيد والردىء مع صغار النفس وقلة الحياء.

وقد استغل فيها المؤلف خبرته بعلم العروض ودرايته بقواعد الشعر وقوانين القافية واعتزازه بجمال الطبع مع عدم السماح ببعض الضرورات التي لا تترك

للشعر جاذبيته والتي تدفع إلى الأخطاء اللغوية الفاحشة.

والظاهر أن الإسحقاقى كانت له خبرة بعلم العروض وأنه كان في أيام شبابه ينظم الشعر ويمارسه إلا أننا لا نستطيع أن نحكم على شاعريته حكماً دقيقاً لأننا لم نطلع على ما يكفيننا منه فليس بين أيدينا لحد الآن إلا أبيات أوردت في الرحلة نذكرها للاستئناس بها ولعلها كانت من الشعر الأول الذي قاله في شبابه قبل أن يتمكن من ناصية اللغة وقوة البيان.

فقد أورد هذه الأبيات حينما كان يترحم للفقير مفتي الشافعية بالحرمين الشريفين زين العابدين بن سعيد المنوفي وكان ذا أخلاق طيبة وكرم وسخاء متجاوز الحد يقول الشعر ويحسن إلى الناس كثيراً ولقد استأنس بالإسحقاقى وزالت بينها الكلفة وأنشده في يوم من الأيام قصيدة في مدح الرسول ﷺ فتذكر الإسحقاقى أيام شبابه وقال بعد سماعه للقصيدة المشار إليها: (٢٣٣): ولما فرغ صاحب الترجمة أعزه الله عما أنشدني لنفسه أنشدته على وجه المطارحة في مجلس أنسه مع بعض إخوانه وأبناء جنسه ما كنت قلته قديماً على وجه التمليح والاقتباس.

يا ذا الذي عذبني وما درى كيف فعل
جد لي بريقك الذي ألد من طعم العسل
إياك والبطء به إني خلقت من عجل
فكتبها وسمطها للحين ..

ومن يسمع هذه الأبيات فسيرى أنها لا تمثل قوة أدبية ولا رقة شعرية كافية وإنما هي أبيات تكاد تكون من المحاولات الأولى التي سار عليها الشاعر ونحن لا ندري هل وقف الإسحقاقى مع هذه المحاولات فلم يتجاوزها إلى غيرها أو استطاع أن يقوى ملكته الشعرية وينمي قوته الخيالية ويصقل معطياته التصويرية فليس بين أيدينا ما نبرر به الجانب الثاني لأن الرحلة خالية من شعره رغم اهتمامه بالنقول الأدبية إلى حد كبير.

وكانت النقول الأدبية مختلفة الأغراض ومتعددة الجوانب ومثلة لعصور مختلفة مما يمكننا أن نستدل به على حسن اختياره وسعة ثقافته.

ولم يكن في اختياراته يهمل الجوانب العاطفية الرقيقة الدالة على رقة طبعه وسلامة طويته.

فمن ذلك مثلاً قوله وهو يغادر البلاد المغربية أثناء شروعه في السفر (١٩):
وخرج معنا مشيعون من الأولاد والطلبة والأحباب والأصحاب فجمعنا بين حلاوة التشيع ومرارة التوديع وإن كان الشيخ أبو الفتح ابن دقيق العيد رأى صواب ترك الجميع إذ قال:

صدني عن حلاوة التشيع ما أرى من مرارة التوديع
لم يقم أنس ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميع
ولما ودعنا من كان معنا من الطلبة والأصحاب أنشدت متمثلاً في الحال قول من قال:

ليت شعري أنلتقي بعد هذا أم وداعاً يكون هذا اللقاء
فاذكروني وزودوني دعاء خير زاد تزودوني الدعاء
وكان حنينه إلى وطنه متجدداً يذكره في كل مناسبة ويتحدث عنه كلما وافته
الظروف ولقد نقل قصيدة كاملة من نظم صديقه القاضي العميري أنشده إياها
وهو بمصر فسجلها في رحلته ونقلها للتعرف على بعض النماذج الأدبية المغربية في
هاته الحقبة التي نتحدث عنها قال الإسحاقى: (١٤٣): تذاكرنا الغرب يوماً
ونحن بمصر فذكرنا مطمح النفس ومحل الأنس مكناسة الزيتون وما بها من المعاهد
التي استفتى القلب فيها نفسه وإن افتاه المفتون ففتت الشوق منا كل كبد وبرح كل
منا بما يجد فأنشدني صاحبنا الفقيه الأديب السيد بلقاسم بن الفقيه العلامة السيد
سعيد العميري لنفسه ما أنشده أيام نزوحه عن الحضرة المذكورة وجلالته عنها أيام
الحادث الجارف الذي استوعى التالد والطارف بناحية غمارة:

يا	للورى	لعمارة	سئمتها	بغمارة
أرابني	اليوم	أمر	كنت امتطيت	غمارة
فصنتها	عن مقامي		صون الغيور	ذماره
وملت	عنها	بوجه	أملت عنه	خماره
من احتسى	الكأس صرفاً		لا ينكرن	خماره
وما	بغير	بلادي	أرض ولو	بإماره
لا تجهلن	وفائي		فلي عليه	أماره
وكيف	لا	وبكره	خلى الحبيب	وداره
فليس	يبغي	سواها	مأوى ولو	كان داره
وكان	منها	لسبدي	في أفق	عزي داره
ما حيلني	في رجوعي		وأحرّ قلبي	وناره
واللوم	في ذاك	لوم	لا ترفعن	مناره
يا هل	يرد	لشمسي	بعد الأفول	إناره
حتى	يقال	فلان	يا سعد	الحب زاره
وسرت	في الأرض	أبغي	مزاره	فمزاره
رئى	لي الناس	طرا	معه	ونزاره
وما	وجدت	عزيزاً	يجير من	كان جاره
فتم	في الله	قصدي	وكنت حقاً	مجاره
ورد	كيد	قلوب	قساوة	كالججاره
حتى	يصون	رجائي	عن خيبة	وخسارة
حتى	يمن	عليه	حتى يفك	إساره
حتى	أعود	قريباً	لمعشري	عود ساره

ثم قال المؤلف:

وربما اتبعنا الزفرة بالزفرة وواصلنا العبرة بالعبرة وأنشدنا من الإشتياق إلى
الأوطان وتزاحم الأشواق قول أبي حيان:

يا فرقة أبدلتني بالسرور أسي وأسهرت ناظراً [قد] طالما نعسا
أني يكون اجتماع بين مفترق جسم بمصر وقلب حل أندلساً
وهكذا نرى رغم حبه للتنقل واشتياقه لزيارة البقاع المقدسة لا ينسى وطنه ولا
تغيب معالنه عن نفسه فهو يذكره في جل الأحيان ويختار من الشعر ما يعبره عن
حزن الفراق وعن لوعة الإشتياق.

(٤)

لقد بينا في حلقات سابقة أن الوزير الإسحاقى كان كثير الاهتمام بالشؤون
الثقافية وأنه كانت له عناية بذكر الإشعار وتدوين بعض الأخبار المتصلة بشؤون
الفكر سواء كانت مرتبطة بالإطار الفقهي أو بالإطار التاريخي أو بالإطار
الإجتماعي ولهذا لا نطن أن المهتمين بتاريخ المغرب يمكنهم الإستغناء عن
المعلومات المقتبسة من هاته الرحلة فهي بعد النشر ستمكن الكثير من الدارسين
من الإطلاع على بعض أحوال المغرب وعلى بعض اهتماماته التاريخية العامة وعلى
بعض شؤونه الفكرية والأدبية في القرن الثاني عشر الهجري.

وقد تجلى لنا ذلك واضحاً في بعض ما ذكرناه سابقاً وسيجلى ذلك لنا أيضاً فيما
سنشير إليه

مركز تحقيق كاتوير علوم رمدى

إن المؤلف كان دقيق الملاحظة وكان يربط بين الواقع المغربي وبين المعطيات
الحضارية العامة سواء بالنسبة إلى التاريخ القديم أو إلى التاريخ الذي كان يحياه
بنفسه فهو مثلاً حينما كان يتحدث عن الدولة العلوية ربط بين أصولها من
الأشراف الذين وفدوا على المغرب من الحجاز وبين رجال الدولة الحاكمين وأحسن
بوجود روابط ذاتية بين الأشراف الحاليين وبين أجدادهم في ينبوع النخل لا تتصل
بالطباع فقط بل تصل إلى حد التشابه في الخلقة الجسمية نفسها فهو حينما كان
يتحدث عن أشراف ينبوع النخل بالحجاز قال: (١٦٤): ومن العجب أن هؤلاء
السادة مشاهيون للشرفاء أهل تافلات في ألوانهم جمعهم سمرة الحجاز والله لقد
رأيت شريفاً منهم هو أشبه بمولانا اسماعيل رحمه الله لونا وقدأ وسلامى يدين.

وحديثه عن الأشخاص الذين التقى بهم في الرحلة مفيد جداً خصوصاً فيما يتعلق بالمجال السياسي أو فيما يتعلق بالمجال العلمي ولقد كانت لهذه الإشارات التي دونها في رحلته فائدة أعانت على معرفة كثير من العادات السائدة ويسرت الإطلاع على جوانب من تاريخ بعض الأعلام الذين كان لهم أثر في التسيير العلمي أو التاريخي.

ففي مدينة فاس مثلاً (٢٣) أشار إلى الفقيه الخطيب السيد البكري بن محمد الشادلي بن الولي الصالح سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي حيث استمع إليه في مسجد الأشراف وهو يصلي هناك يوم الجمعة فرأى فيه خطيباً بليغاً تهتز لخطبته النفوس وتخشع القلوب وتدمع العيون وتهيج شوقاً إلى زيارة البقاع المقدسة فقد قال في رحلته حين كان يصف هذا الخطيب أثناء صلاة الجمعة، فما ترى من الحاضرين إلا من ذرفت منه العيون واستنفد ماء الشؤون وود أن لو كان له جناح يطير به مع الرياح ومن لم يساعده المقدور ببلوغ ذلك المنى والسؤل ينشد بلسان حاله أو مقاله ويقول:

يا راحلين إلى المختار من مضر سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحاً
إننا أقمنا على عذر ومفجزة ومن أقام على عذر كمن راحا
وفي مدينة تازا اتصل بالفقيه الأديب السيد عبد القادر بن محمد المصيني وقال عنه إنه فقيه نجيب له مشاركة تامة في فنون من العلم وتسلط عليها بفهم ثاقب يرد المجهول إلى المعلوم ذاكرته في مسائل أنبأنا فيها شاهده عن غائبه.

ومن وصفه لهذا الفقيه تبين لنا العناصر التقديرية التي يبني عليها المؤلف قيمة المثقف النافع.

فمن هذه العناصر:

أولاً - المشاركة التامة في مختلف الفنون وهذه الظاهرة كانت صورة للمثقف الحقيقي في المجتمع العربي حيث كان يحسن اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ وبعض مقدمات الطب والحكمة فإذا تحدث جال في مختلف المعارف

جولة العالم الموسوعي الذي يطمئن إليه من سألته ويرتاح إلى معرفته من احتاج إليه .

ثانياً - التسلط على هذه الفنون بالفهم الثاقب فليس هناك ما يضيع العلم مثل الإنغلاق على المعرفة وعدم استخدام العقل في استيعاب كنه الأشياء لأن ذلك الإنغلاق يحجر الفكر ويجعل الإنسان كالبيغاء يردد ما هو موجود ولكنه لا يعي ما يقول .

ثالثاً - القدرة على الافهام وذلك لا يتم إلا بالفهم إذ من المعروف أن الذي يستوعب الأشياء ويفهمها فهماً جيداً يقدر على حصر معلوماته وعلى تحديد طريقة تلقينها ووسيلة تبليغها وعلى البحث عن أيسر الوسائل التي يستطيع بها إبراز المجهول وربطه بالمعلوم فالإلمام بالمادة كما يقول أهل التربية ييسر البحث عن وسيلة التبليغ ويعين الملقن على اختيار السبل النافعة والطرائق الناجعة التي يستطيع بها رد المجهول إلى المعلوم .

رابعاً - القدرة على الحوار والمذاكرة وعدم الإقتصار على المحفوظ فإن الذي لا يحسن الحوار ولا يعرف كيفية التصرف في معلوماته هو أقرب إلى الجهل منه إلى العلم فالمذاكرة أصل من أصول المعرفة وسعة الخاطر فيها دليل على التمكن من آداب العلم وآداب الحوار.

وفي مدينة تازا لم يكتف المؤلف في الإطار الثقافي بذكر من التقى بهم مباشرة بل أشار إلى بعض العلماء الذين زار قبورهم وتحدث عنهم تحدث المعجب بهم وبقيومتهم كما أشار إلى بعض المآثر الحضارية التي اشتهرت بها هاته المدينة في تاريخ المغرب .

فقد زار مسجدها ووصفه وصفاً أبان فيه ما يختص به هذا المسجد من الجمال والإتقان كما وصف المدرسة الملاصقة له المكتوب على بابها :

لعمرك ما مثلي بشرق ومغرب يفوق المباني حسن منظري الحسن
بناني لدرس العلم مبتغياً به ثواباً من الله الأمير أبو الحسن

وعند حديثه عن المسجد أشار إلى ثرياه الكبرى التي أقامها المرييون وإلى ما كتب عليها من أشعار كما أشار إلى الخزانة التي بقبلته على يسار المحراب وإلى المنبر وما يمتاز به من إتقان.

وبعد الإنتهاء من ذلك قال: . . . والكل من عمل بني مريين جزاهم الله بالخير إذ كانوا على السنة والسذاجة في الدين عقدهم أشعري والمذهب ليس بقدرى . ونظراً لاهتمامه العلمي لم يهمل في مدينة تازا بعض مزاراتها المختصة لعلماء أجلاء كان لهم وزن علمي من بلادنا من أولئك العالم ابن بري الذي قال عنه: (٢٩) ابن بري هو علي بن الحسين الشهير بابن أبري التسولي النسب التازي الدار.

قال ابن عبد الكريم هو من بني لنت وكنت أسمع أنه من بني مقورة منهم وقال المجاصي التسولي البلنتي صاحب الكلام البديع والخط الرفيع . قال ابن مسلم الرباطي قال الحصار قال ابن المجراط ولد بتازة في الستين والست مئة ونشأ بزقاق الزفانين منها واجتهد كثيراً في الذكر والبحث والمطالعة وكان من طلبة تازا من عدوها وانتقل إلى فاس كاتباً سنة أربعة وعشرين وسبع مئة وتوفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال عام ثلاثين وسبع مئة

قال ابن عبد الكريم توفي بفاس - قال الحصار ودفن ببلاده يعني تازة قلت في روضة الترجارين قال: الشريف عمر بن ابراهيم قدس الله روحه رأيت قبره في روضة الترجارين بتازاً.

وشيوخه أبو جعفر بن الزبير وأبو الحسن بن سليمان وأبو الربيع ابن حمدون ذكر ذلك في إجازة له .

وتأليفه عشرة الرجز المشهور وتأليف في القراءة أيضاً وشرح وثنائق الغرناطي والكافي في العروض والقوافي وشرح ابن السقاط في العروض وشرح الإيضاح للفارسي واختصر زهر الآداب واختصر الشريشي على المقامات وذكر الحصار أنه

ابتدأ شرحاً على المدونة والقانون في رواية ورش وقالون مختصر انتهى من خط بعض الأفاضل الفاسيين البوعنانيين.

ويتضح لنا من هذه الترجمة أن المؤلف لم يكن ينطلق مع قلمه عند ذكر أخبار الناس دون أن يعتمد على توثيق دقيق فهو لم يكتف بذكر ترجمة ابن بري ولكنه نقلها عن أصول ذكرها ليكون القاريء على بينة من أمره وليعلم مصدر هاته الأخبار وتلك سجية العلماء لا يدعون ما ليس لهم ولا ينتحلون ما لغيرهم وإنما يشيرون إلى الأصول لتبقى حرية النقد عند السامع والقاريء فيربط كل خبر بأصله وعن طريق ذلك تنطلق تقديرات التعديل والتجريح.

ومن تازا يمكننا أن نسير مع المؤلف في رحلته لنقف بالخصوص على بعض الجوانب الثقافية الأخرى ولنطلع على بعض أحواله.

(٥)

إن الإعتناء بذكر أهل العلم وبزيارة قبورهم ظاهرة طبعت رحلة الإسحاقى منذ بدايتها إلى نهايتها ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن هذه الرحلة صالحة لتحديد بعض الملامح الثقافية الموضحة لاهتمامات العصر الذي كتبت فيه.

فالإسحاقى لم يكتف بذكر بعض المعالم التي أعجب بها في المغرب فقط بل تتبع ذلك أثناء مسيرته فهو حين وصل إلى تونس زار مدينة توزر وفي هذه المدينة ذكر أنه التقى بالفقيه السيد محمد بن منصور وبيعض طلبته والتمس منه أن يعيره جزءاً من شرح القسطلاني على كتاب البخاري فاستجاب له الفقيه وحينئذ قضى كثيراً من أوقاته في التبرك بدراسة هذا الكتاب شأنه في ذلك شأن المغاربة الذين لهم إعجاب كبير بصحيح البخاري وبشروحه المختلفة وبقي هذا الجزء بيده إلى أن رده إلى صاحبه بمدينة طرابلس.

ولاحظ المؤلف في مدينة توزر أن النساء يكثرن من لباس السواد فأثار ذلك انتباهه ودفعه إلى استفسار أحد الفقهاء من تلامذة السيد ابن منصور يعرف بأبي رمضان عن العلة في ذلك وقارن بين هاته العادة وعادة أهل الأندلس كل ذلك

بأسلوب جميل وبرقة في التعبير والاستدلال قال: أخبرني الفقيه السيد بورمضان المذكور لما سألته عن لباس أهل البلد - أعني توزر - لا سيما النساء لا يلبسن إلا السواد فقال تلك عاداتهم. النساء يلبسن السواد حالة السرور والرجال يلبسون البياض حالة السرور فإذا تغيرت الحال بالحزن والعياذ بالله لبس النساء البياض ولبس الرجال السواد. تذكرت ما أنشده بعضهم في أهل الأندلس إذ كانوا يلبسون السواد في سائر أحوالهم فإذا أحدهم حزن لبس الثياب البيض:

ألا يا أهل أندلس فطتم بلطفكم إلى شيء عجيب
لبستم في مآتمكم بياضاً فجثتم منه في زي غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب

وفي هذه المدينة زار المؤلف قبور ثلاثة أعلام من أعلامها المشهورين في التاريخ العلمي والأدبي وهم الإمام الشقراطيسي صاحب اللامية المشهورة المتوفي سنة ٤٦٨هـ وأبو الفضل ابن النحوي صاحب المنفرجة المتوفي سنة ٥١٣هـ وابن الشباط شارح الشقراطية المتوفي سنة ٦٨١هـ.

وإن زيارته لهؤلاء وذكره لهم في رحلته ليدل دلالة قوية على ما كان يشعر به هذا الرجل إزاءهم فهم كانوا ذوي شهرة في البلاد المغربية تتلى قصائدهم وتقرأ كتبهم ويفتخر بالإنتماء إلى أخلاقهم وسلوكهم.

ولعل من المفيد أن نقدم ترجمة موجزة لكل واحد منهم:

فالشقراطيسي هو أبو محمد عبدالله بن أبي زكرياء التوزري المشهور بالدراسات اللغوية والفقهية والحديثية ولقد كان سكان بلده يعتمدون عليه في الأحكام الفقهية ويستندون إلى فتاواه واجتهاداته وقد ألف كتاباً سماه الأعلام في معجزات خير الأنام ختمه بقصيدة لامية شهيرة أصبحت تعرف فيما بعد بالشقراطية يقول في مطلعها:

الحمد لله منا باعث الرسل هدى بأحمد منا أحمد السبل
خير البرية من بدو ومن حضر وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

توراة موسى أتت عنه فصدقها إنجيل عيسى بحق غير مفتعل
أخبار إخبار أهل الكتب قد وردت عما رأوا أو رويوا في العصر الأول
ولقد ختمها الشيخ محمد بن علي بن الشباط أحد هؤلاء الثلاثة المذكورين وشرحها
بشرح ثلاثة كبير ومتوسط وصغير (ج ١ ص ٤٢ من عنوان الأريب).

وأما أبو المحاسن يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي التوزري فهو أحد
الطلبة الذين تلقوا العلم عن الشقراطيسي السابق وكان له اهتمام بالفقه ويكفيه
فخراً أنه سافر إلى صفاقس ليروي عن أبي الحسن اللخمي كتاب البخاري
ولينسخ منه تبصرته ثم سافر إلى قلعة بني حماد بالقطر الجزائري.
ولقد اشتهر بالقصيدة المعروفة بالمنفرجة المبنية على وزن الخب يقول فيها:

اشتدّي أزمة تنفرجي فقد آذن لي لك بالبلج
وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السرج
وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الإبان تجي
وهو القائل (ج ١ ص ٥١):

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت يا سيدي يا منتهى أمني يا من عليه بكشف الضر أعتمد
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها مالي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالضر مشتكياً إليك يا خير من مدت إليه يدُ

وأما محمد بن علي بن محمد بن شباط التوزري فقد برع في العلوم البلاغية والأدبية
ونظم الشعر وهو الذي خمس الشقراطيسية السابقة الذكر وجعل لها شرحاً مفيداً
كان الإسحاق ي نقل عنه من حين لآخر يقول في مطلع هذا التخميس: (ص
٦٥، ج ١).

إبدأ بحمد الذي أعطى ولم تسل وذذ به ريب رين الأين والكسل

فالحمد أحلى جنى من طيب العسل الحمد لله منا باعث الرسل
هدى بأحمد منا أحمد السبل

إن زيارة الإسحقاقى لقبور هؤلاء العلماء وتدوين أسمائهم في رحلته تعبير عن
إجلاله لأهل العلم وتقديره لذويه ولذلك لا تخلو رحلته من هذه الزيارات
يتحدث عنها معجباً ويضيفها دائماً إلى زياراته للأحباء فيجمع بين الأخذ المباشر
وبين الإشارة إلى من يستحقون الذكر المستمر وإن ماتوا قديماً لأنهم أحياء بعلومهم
وسلوكلهم وهذه ميزة تدل على حسن أخلاق الإسحقاقى وعلى مدى اعتزازه بالعلم
وذويه .

(٦)

لا تستطيع إشارة عابرة أن تحدد جميع ما كان يثير اهتمام الوزير الإسحقاقى أثناء
رحلته إلا أن الطابع العلمى والتاريخى والتربوى لا يمكن إهماله ذلك أن
الإسحقاقى كان يجد لذة في الإشارة إلى ذلك ومتعة في التعليق على ما يرتبط بهذه
الاتجاهات .

فهو مثلاً كان يكتفى أحياناً بالإشارة العابرة إلى فقيه أو أديب حفظاً للتاريخ
كإشارته في طرابلس إلى فقيه تونسي اسمه محمد وإلى فقيهين مغربيين هما محمد
بوقلال وأخوه أحمد وإلى الأديب محمد بن سعيد الطرابلسي وإلى السيد محمد
الفرخاني الذي كانت له مشاركة تامة في فنون من العلم ولكنه في الأكثر كان يعلق
ويعقب ويلاحظ مثل ما رأينا في كثير من الملاحظات السابقة ومن ذلك مثلاً أنه
حينما وصل إلى مصر وبعد وصفه لكثير من حلقات الدروس الموجودة بالجامع
الأزهر ذكر أنه اتصل هناك بالفقيه السيد علي الحنفي الذي كان له ولوع بتدريس
ألفية ابن مالك فوجده في مستوى غير جيد، ذلك أن السيد الحنفي كان ضيق
العطن بين اللكن، يعاني في التقرير شدة وكل من ألح عليه في البحث رده أو
صده .

وهنا نلاحظ عمق الملاحظة التربوية التي أبداءها الإسحقاقى والتي تؤكد مذهبه
التربوي الذي أشرنا إليه من حين لآخر فهو يرى أن البحث لا ينمو إلا بالحوار

والحرية وإلا كانت الدروس عقيمة ومملة مثل الحال الذي يتصف بها السيد الحنفي هذا فإن ضيق صدره جعل المؤلف يتعد عنه رغم تشوقه إلى الاستفادة منه فقد كان يرغب في أن يستمع إلى بعض تقريراته وإلى بعض ما عنده من علوم ولكنه لم يمنحه شيئاً من ذلك فما قال الإسحاقى في وصف هذا الفقيه؟

رَغِبْتُ الشيخ علي الحنفي المذكور أن أقرأ عليه شرح السعد على العقائد النسفية لما سمعت أنه قرأها عام أول قبل وصولنا فمنع من ذلك كل المنع وأخذ يذم علم الكلام ويزهد في الإشتغال به فينبذه كما نبذت بروايتها الصناعات وجعلته من جهة تساقط المتاع وكان ذلك آخر العهد به وكان قبل ذلك أضافني وقال لي تتعشى عندي ولكن عشائي ما فيه لحم فقلت له إني رضيت بما حضر فقال كأن هذا شطر بيت شعر فقلت هو من كلام محمود الزمخشري وأنشدته الأبيات بجملتها فقال لي: لا حمد الله له عاقبة فقلت يا سيدي سمعنا بعض أشياخنا إذا ذكروه يقولون: سامحه الله فلج في الدعاء عليه وقال: الكلب معتزلي

إن المتأمل في هذه الفقرة التي اقتبسناها من الرحلة يستشف منها الروح العلمية التي امتاز بها الإسحاقى والطريقة المثلى التي يراها صالحة في التلقين فهو رغم كبر سنه واطلاعه يرغب في المزيد من المعرفة ويرجو أن يقرأ كتاباً في العقائد بتعليقات شيخ مصري سبق له أن درس هذا الكتاب ثم إننا نراه يشمئز من روح التعصب المؤدي إلى شتم بعض العلماء واستنقاصهم استنقاصاً هجيناً فمن الآداب العلمية إبراز أخطائهم وإظهار الجوانب العقائدية التي لا تتفق مع الاتجاه الآخر بلين قولي ومنطق عقلي وحجة عقلية تساعد على الوصول إلى الأهداف زيادة على الالتماس من الله أن يهدي الضالين ويرجعهم إلى طريق الصواب.

ولقد افتخر في هذه الخطة بشيوخه الذين كانوا إذا ذكروا الزمخشري ترحوا عليه وطلبوا من الله أن يسامحه.

ولعل خطة شيوخه كانت أسلم فقد جعلتهم يطلعون على مختلف الأفكار ويختارون منها الملائم مع عقيدتهم السنية وينصرفون عن غيرها.

وهذا هو السبب الذي جعلهم لا يهتمون دراسة كثير من الكتب التي لا تتلاءم مع معتقداتهم فقد درسوا كتب الجاحظ كما درسوا كتب الزمخشري دون أن يجدوا في ذلك حرجاً.

والدليل على ذلك ما أشار إليه الإسحق في فهو لم يكتف بذكر ما ألفه الزمخشري بل كان يحفظ بعض شعره ويشير إليه في اقتباساته ولهذا ذكر أنه أملى الأبيات على السيد الحنفي والمراد بذلك الأبيات التالية: $\frac{572}{3}$

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وطر وما نطلبن النجل من أعين البقر
فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت عيونهم والله يحزني من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة ولم أرفي الدنيا صفاء بلا كدر
ولم أنس إذ غاظته قرب روضه إلى قرب حوض فيه للماء منحدر
فقلت له جئني بورد وإغما أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال انتظرني رجع طرف أجيء به فقلت له هيهات مالي منتظر
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر فقلت له إني قنعت بما حضر

ولما غادر مصر أصبح متشوقاً إلى مكة تشوق الوهان وارتفعت في نفسه التطلعات إلى تلك الأراضي المقدسة وحن إلى أهلها وعلمائها ولم يكتف حين الوصول إليها بأداء المناسك الدينية فقط بل حاول أن يستفيد من علمائها وأن يتبرك من صلحائها . ٢١٤

ففي مكة اتصل بسيدي عمر البار الحسيني وبالعلامة الحافظ ابن عبد الله محمد بن أحمد عقيلة المكي وهو رجل عالم فاضل له من التأليف العلمية عدد كبير أشار إليها وذكر أنه نال منه الإجازة في رواية حديث مسلسل يتعلق بقول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل يا معاذ أنا أحبك فقل اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وفي رواية أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وقبل مغادرته كتب إليه الوثيقة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وبعد فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد عقيلة، إني قد أجزتُ الرجل الصالح الفاضل العالم الكامل الشيخ محمد الشرقي الإسحاقى بالحديث المسلسل، إني أحبك فقل اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وتمتع أيضاً بالتسلسل فيما يتعلق بحديث المصافحة وبالإجازة في كل ما رواه الشيخ العقيلي.

(٧)

ما زلنا نواصل الحديث عن ثقافة الإسحاقى من خلال الرحلة التي قام بها إلى مكة فهو قد أكثر من الإتصال بالعلماء والصلحاء في هذا البلد الأمين.

ومن الذين اتصل بهم وأظهر فضلهم وتحدث عن قيمتهم العلمية الأستاذ الفاضل السيد محمد الطبري شيخ المقام الحنبلي فقد قال عنه إنه رجل متصوف وعلى مكارم الأخلاق متطوف، عاكف بالحرم على العبادة والتصنيف ملازم له في الشتاء والصيف والخريف لا يخرج فيها حدثاً عنه إلا ليلة السابع والعشرين من رمضان يخرج لمقام إبراهيم عليه السلام ويحيي ليلته تلك حتى يختم الختمة القرآنية ثم لا يراه أحد بعد إلا من قصده لداره وخلوته . تفرغ للعبادة واحتفل للتصنيف أي احتفال وهو أشعري غدا يحمد رأي الناس في الإعتزال دخلنا عليه في داره بعد الاستئذان فأذن لنا وتبركنا برؤيته وتعرضنا لوابل ادعيته وإن لم يصبنا منه وابل فطل .

وبعد وصفه له ذكر أنه قد أجازته مثل الفقيه السابق وأنه قد سمح له بأن يروي عنه كل مروياته قال وكانت الإجازة المذكورة منه لنا بعد أن قرأت عليه شيئاً يسيراً من أوائل بعض كتب الحديث كالبخاري والشافعي وغيرهما بقصد التبرك وزودنا دعاء صالحاً وانفصلنا عنه ممتلئي الحقائق ناثلي الرغائب إن شاء الله . (٢٢٥).

واتصل أيضاً بالفقيه أبي الفضل تاج الدين الحنفي مفتي الحنفية بالحرم المكي فأجازه الحديث المسلسل الراحون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وغيره، وكتب له سنده المتصل عن شيوخه وشيوخ شيوخه إلى أبي قابوس مولي عبدالله بن عمرو بن العاص عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

واتصل بأعلام آخرين جلهم كانوا من أهل الفقه والأدب ولقد انسجمت ارواحهم وتألفت ويستطيع كل من يطلع على الرحلة أن يعرف قيمة علم الحديث في نفس الإسحافي فهو كان يكثر من ذكر الإجازات المتعلقة به ويتبرك غالباً بذكر كتبه وكتب السيرة عامة خصوصاً ما اشتهر منها في المغرب كالبخاري والشافعي ويبدو ذلك حتى فيما لم يشر إليه، فنحن لو خرجنا من مكة معه في رحلته وأشرفنا على المدينة المنورة لوجدناه يقول: وصلنا إلى معهد الفضائل المشهورة ومعقد ألوية الدين المنشورة المظهر الأعلى والبرزخ الأسنى، مشرق الأنوار ومعدن الأسرار من له الفتح والختام والحائز للمقامات العلية بإتمام رسول رب العالمين وسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ تسليماً كثيراً وعلى آله وصحبه أجمعين وعندما قربنا من الحضرة النبوية وشارفنا أبواب المدينة السنية أنشدنا متمثلين قول القائل:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبنا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا
وقول الآخر:

وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الأنام حرام
قربننا من خير من وطئ الثري فلها علينا حرمة وذمام
فلم يكن بد ولا شغل سوى تيمم المسجد الحرام بقصد السلام على سيد الأنام
وضجيعه المولى سيدنا أبي بكر الصديق والمولى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله
عنهما وأرضاهما: ٢٦٤ .

فنحن نرى أن ما تمثل من الشعر ولم ينسبه لقائله إنما هو أبيات وردت في كتاب

الشفاء للقاضي عياض استمدّها كثير من الزوار للمدينة فأنشدوها واستمتعوا بمعانيها وحفظوها لينجعلوها منطقهم عند الدخول إليها شاعرين بالخشوع معترّين بالخضوع عالمين بأنهم مقدمون على أرض أوت الرسول ونصرته وعاشت أيام كفاحه وجهاده واستمدت منه روحه الطاهرة فظلت إلى الأبد مأوى للزيارة ومنبعاً فياضاً للفضائل ورمزاً قيماً لنصرة المبادئ الصالحة، فإذا زارها المسلم تقمصت روحه أحداث التاريخ وتذكر سيرة رسول الله ﷺ الذي جعله الله أسوة للعالمين.

ولا بأس أن نأخذ من الشفاء طريقة عرض الأبيات لنستمع إليها من جديد مقرونة بمصدرها الأصلي فقد قال القاضي عياض ج ٢/٤٥: وحدثت أن أبا الفضل الجوهري لما ورد المدينة زائراً وقرب من بيوتها ترجل ومشى باكياً ومنشداً:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لها
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا

وحكي عن بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة الرسول ﷺ أنشأ يقول:

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تطلع دونه الأوهام
وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
قربنا من خير من وطئ الثرى فلها علينا حرمة وذمام

إن هذه النقول إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الثقافة التي كانت سائدة في المغرب كانت جامعة بين الروح الأدبية والروح الدينية وأن المغاربة كانوا يجدون لذة كبرى في التوجه إلى البقاع المقدسة ليستفيدوا علماً ولينالوا أجراً وليعيشوا من جديد حياة عاشها المسلمون الأولون فتنتعش بذلك أرواحهم وتزكو نفوسهم ويسجلون للتاريخ مرة أخرى صورة البطولة الإسلامية وقصة الحضارة العربية التي لم تنتعش إلا بهذا التآزر الفكري والروحي الذي نتمنى أن يحيا من جديد وأن يبعث بعثاً آخر يربط حاضرننا بالماضي ويمهد لنا طريق الخير للمستقبل والسلام.

فاس: محمد بن عبد العزيز الدباغ

الشعر العربي القديم في المؤلفات اليمنية

وفي هذه الأيام وقع في يدي كتاب من مؤلفات أحد علماء اليمن ممن لم أهتم إلى معرفة مؤلفه، واسم الكتاب «الفاصل بين الحق والباطل، في مفاخر قحطان»، مما أُلّف بعد القرن الرابع الهجري، لأنه ينقل عن الكلاعي المتوفى في أول القرن الخامس - انظر «العرب» س ١٤ ص ٢٨٧ - ومن قبله كصاحب «الأغاني».

ورأيت في هذا الكتاب أشعاراً منسوبة إلى شعراء مشهورين، ولكنها لا توجد في دواوينهم وأشعارهم التي وصلت إلينا، ومنهم دُرَيْد بن الصُّمَّة وعامر بن الطفيل وليد بن ربيعة، وعمرو بن معدي كَرِب وغيرهم.

وكان مما قرأت في هذا الكتاب من أخبار لبيد بن ربيعة العامري: كان يزيد بن عبد المدان أسر لبيد بن ربيعة العامري يوم وقعت عبد الله بن الصمة، وصار إلى نجران، فأقام عنده أياماً ثم منَّ عليه وكساه، وحمله وبعث معه صحابة إلى أرض بني عامر، قال لبيد يشكر ليزيد ولبيد عبد المدان بن الدُّيَّان بن قطن:

إِنْ كُنْتُ سَاقِيَةً يَوْمًا عَلَى كَرَمٍ	صَفَوُ الْمُدَّامِ فَأَسْقِيهَا بَنِي قَطَنِ
قَوْمَ إِذَا وَرَدُوا أُخْلَى لَوَارِدِهِمْ	أَهْلُ الْمَنَاهِلِ صَفَوُ الْوَرْدِ وَالْعَطَنِ
تَدَارَكْتَنِي أَيْدٍ مِنْ فَوَاضِلِهِمْ	وَالْغُلِّ مَنِي فِي مُسْتَحْكِمِ الدَّقَنِ
فَأَطْلُقُونِي وَلَوْ غَابَتْ فَوَارِسُهُمْ	عَنِّي أَقَمْتُ بَدَارَ الْهُونِ فِي قَرَنِ
فَأَفْخَرُ عَلَى مَذْجِجٍ إِنْ مَذْجِجٌ فَخَرَتْ	مَالِمَ تَقُلْ مَذْجِجٌ: مَنَا بَنُو قَطَنِ
وَإِنْ تَقُلْ مَذْجِجٌ مَنَا بَنُو قَطَنِ	فَأَذْهَبُ وَأَنْتَ سَلِيمُ الْجَيْبِ وَالْبَدَنِ

ثم رأيت الهمداني صاحب «الإكليل»، و«صفة جزيرة العرب» ذكر في «شرح الدامغة» - ٢٠٠ - أسر لبيد في «شرح الدامغة» - ١٧٦ - في كلامه على يوم لبوى حصن، لبني الحارث بن كعب على قيس، وهو اليوم الذي قُتل فيه عبد الله

بن الصمة الجشمي أخو دُرَيْدٍ، فرثاه بقصيدته الدالية المشهورة التي يقول فيها:
أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا النَّصْحَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ

ومنها:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ، وَإِنْ تَرُشِدُ غَزِيَّةٌ أُرْشِدُ

وذكر الهمداني أسر لبيد أيضاً بقوله - من الدامغة - :

وَطَوَّقْنَا الْجَعَا فِرَ فِي لَبِيدٍ بِطَوَّقٍ كَانَ عِنْدَهُمْ ثَمِينَا

وجاء في شرح البيت: كان أسره يزيد بن عبد المدان، يوم قتل عبد الله بن الصمة - وقد تقدم ذكر ذلك - وصار به إلى نجران، فأقام عنده مديدة، ثم مَنَّ عليه وكساه وحمله، وبعث معه صحابةً إلى أرض بني عامر، فقال لبيد في ذلك يشكر يزيد بن عبد المدان بن الديان بن قطن - ثم أورد الأبيات - .

وإذن: فمصدر الخبر هو الهمداني، وكنت قد أشرت في ترجمته التي نشرت في مقدمة كتابه «صفة جزيرة العرب» - إلى تصرفه في الشعر، وإيراده بروايات مختلفة، ففي «شرح الدامغة» - أورد أبياتاً لعلقمة، تختلف عن إيراده لها في «الإكليل» - ١٥/٨ - بل في «شرح الدامغة» أورد بيتاً لقيس بن الخطيم، ثم أورده في الكتاب نفسه مغيراً كلمة (وضعت) بكلمة (جعلت)، ومثل هذا التغيير حدث في شعر لبيد كما في «شرح الدامغة». بل قد صرَّح بمثل هذا فقال عن أرجوزة الرداعي التي أوردها في آخر كتاب «صفة جزيرة العرب» - ٤٠١ - : (ما كان منها معيياً من جهة الاضطراب ولا فائدة فيه فقد ثَقَّفْتُه وأصلحته).

ومن أسوأ أنواع التصرف تغيير أسماء المواضع، فقد أورد في «صفة جزيرة العرب» لذي الأصبع العدواني: جلبنا الخيل من (بقران).

وأورده في «الإكليل»: عدا بالخييل من (جلدان).

وفي «صفة جزيرة العرب»: يا حُرُّ ذات الوعث والجراول. والمعروف: يأنخل
ذات الوعث - في وادي نخلة - كما في كتاب «بلاد العرب» لِلْغُدَّةِ الاصبهاني -
ص ٣٧٨ -

وأبو محمد الهمداني هذا من أجلة علماء اليمن وأوسعهم اطلاعاً، وموقفه هذا
الذي أوردت نماذج منه من رواية الشعر جدير بالملاحظة.

ثم رجعت إلى أوفى طبعة من ديوان لبید التي بعنوان: «شرح ديوان لبید بن
ربيعه العامري» بتحقيق استاذنا الجليل الدكتور احسان عباس، فلم أرتلك
الأبيات في الديوان، ورأيت فيه أبياتاً تخالف رواية الهمداني في كتابه «شرح
الدامغة» ومنها:

أتونا بشهرانِ وَجَمْرَةَ مَذْجِجٍ وإحداهما أضعافُ بكر بن وائل
وَخَثْعَمَ قوم يعدلون بمَذْجِجٍ وهل نحن إلا مثل بعض القبائل؟

- انظر «شرح الدامغة» ص ٢٥، مع أنه أوردها برواية أخرى في الكتاب نفسه في
موضع آخر:

أتونا بِشَهْرَانٍ وَمَذْجِجٍ كُلُّهَا وهل نحن إلا مثل إحدى القبائل

والبيتان في زيادات الديوان - ص ٣٦٥ - :

أتونا بشهرانِ العريضة كلها وَأَكْلِيهَا ميلاد بكر بن وائل
وَخَثْعَمَ حَيٌّ يعدلون بِمَذْجِجٍ وهل نحن إلا مثل إحدى القبائل

ومما قرأت في ذلك الكتاب في أخبار غارات عمرو بن معدي كرب الزبيدي مما
رواه محمد بن الحسين الكلاعي ما نصه: (وكان عمرو بن معدي كرب يهوى
ريحانة ابنة الصمة أخت دُرَيْدِ بن الصمة الجشمي فقال فيها:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُسَوِّرُقُنِي وَأُضْحَايَ هُجُوعِ

بِرَانِي حُبُّ مَنْ لَا أُسْتَطِيعُ وَمَنْ هُوَ لِلَّذِي أَهْوَى يَسُوعُ (؟)
إِذَا لَمْ تَسْتَطِيعْ أَمْرًا فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

وَأَنَّ عَمْرًا خَاطَبَهَا إِلَى أَخِيهَا دَرِيدَ فِكْرِهِ، لِأَنَّ عَمْرًا كَانَ مُفْرَكًا عِنْدَ النِّسَاءِ، فَتَزَوَّجَهَا رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهَا يُقَالُ لَهُ الْغَطْرِيفُ، فَلَمَّا عَلِمَ عَمْرُو أَنَّهُ قَدْ قَرِبَ زَفَافُهَا خَرَجَ غَازِيًا لِبَنِي جُشَمٍ، فَأَوْقَعَ بِهِمْ وَسَبَّاهَا وَرَاحَ بِهَا فَاتَّخَذَهَا عَرَسًا، فَوَصَلَ إِلَيْهِ دُرَيْدٌ قَاصِدًا فَقَالَ: أَفَدْنِيهَا (؟) أَوْ تَزَوَّجْهَا مِنِّي، وَزَوْجَنِي أَخْتُكَ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَذْخَصُ عِنْدِي لِلْعَارِ، فَزَوَّجَهُ عَمْرُو أُخْتَهُ، فَوَلَدَتْ لَهُ أَبِيُّ بْنُ دَرِيدٍ. انْتَهَى

وهذا لا يتفق مع ما أورده صاحب كتاب «الأغاني» ج ١٥ ص ١٧٥ - دار الثقافة في بيروت - من أن عمرو بن معدي كرب قال قصيدته العينية التي مطلعها:

أَمِنْ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤَرْقُنِي وَأُصْحَابِي هُجُوعُ
بِرَانِي حُبُّ مَنْ لَا أُسْتَطِيعُ وَمَنْ هُوَ لِلَّذِي أَهْوَى مَسُوعُ

قالها في أختها ريحانة بنت معدي كرب لما سبها الصمة بن الحارث بن بكر، وكان أغار على بني زبيد في قيس، فاستاق أموالهم وسب ريحانة، وانهمزت زبيد بين يديه، وتبعه عمرو وأخوه عبد الله بن معدي كرب، ثم رجع عبد الله وأتبعه عمرو.

ثم نقل عن ابن سلام أن عمرواً اتبعه يناشده أن يخلي عنها فلم يفعل، فلما يس منها وهي تناديه بأعلى صوتها: يا عمرو!! فلم يقدر على انتزاعها، وقال:

أَمِنْ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ

ثم قال ما نصه: وأما قصة ريحانة فإن عمرو بن معدي كرب تزوج امرأة من مراد، وذهب مغيراً قبل أن يدخل بها، فلما قدم أخبر أنه قد ظهر بها وضح فطلقها، وتزوجها رجل من بني مازن بن ربيعة، وبلغ ذلك عمرواً وأن الذي قيل فيها باطل، فأخذ يشبب بها فقال قصيدته، وهي طويلة:

أَمِنْ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤَرْقُنِي وَأُصْحَابِي هُجُوعُ

فصاحب «الأغاني» كما ترى يصرح بأن ربحانة أخت عمرو، بينما هي في المخطوط اليمني ليست أختاً له، وأنها ابنة الصُّمَّة أخت دُرَيْد، من بني جُشَم ثم إن الباحث يجد نصوصاً كثيرة في المؤلفات اليمنية ككتاب «الإكليل» وكتاب «شرح الدامغة» للهمداني ومؤلفات نشوان بن سعيد الحميري تخالف بعض نصوصها ما يجده في مؤلفات علماء العراق من متقدمي اللغويين والمؤرخين والأدباء.

ولا يتسع المقام لإيراد نماذج لهذا الاختلاف، والأخبار والأشعار التي ترد في المؤلفات اليمنية تأتي مقترنة بذكر حوادث تاريخية، ومواضع معروفة، وخاصة فيما يورده المؤرخون اليمنيون في اثبات مفاخرهم ومآثر قبائلهم وأخبار ملوكهم.

فما هو موقف الباحث من هذا الاختلاف؟

إنه لا يستطيع أن ينكر ما للعصبية القبلية من تأثير في كل ما أثر عن القبائل من مفاخر وأخبار وحروب، من أبرز آثارها ما وصل إلينا من شعر المفاخرات والنقائض، ولعل من أقدم ذلك قصيدة الكميت بن زيد الأسدي - انظر «العرب» س: ١٣ ص: ٦٨٧ وما قام به شعراء اليمن من معارضة تلك القصيدة بما سموه الدوامغ، ومن أشهرها قصيدة الهمداني التي نُشِرت كاملة بشرحها، ويعتبر هذا الشرح من أوفى ما ضم نماذج من الشعر المتعلق بمآثر القبائل ومفاخرها.

من هنا كان على الباحث فيما يتعلق بأخبار القبائل وفي ذكر الأيام التي جرت بينها أن يقف موقف الدارس المتعمق لكل ما يقرأه في المؤلفات القديمة من هذا القبيل سواء كانت يمنية أو غير يمنية.

ولئن كان لعلماء العراق في تدوين الأدب العربي بل التاريخ بصفة عامة اليد الطولى والسبق في ذلك، مع شدة التحري للصحة غالباً لما يحدث بين أولئك العلماء في مجالسهم ومنتدياتهم من مناقشات فيما يتناقلونه بالرواية من الأشعار أو

الأخبار حتى اكتسبت بذلك تمحيصاً وتحققاً في الأعم الأغلب.

فإن مثل هذا ما لم يحدث لعلماء اليمن الذين اقتصروا في الغالب على تدوين تاريخ بلادهم وما يتصل بذلك التاريخ من أخبار القبائل وأشعارها وأنسابها، بدون تمحيص، أو تثبت في الرواية. كما أن محصول علماء اليمن من الأدب العربي في بدء تدوينه لا يصح أن يقارن بما أثر عن علماء العراق شعراً ولغةً وتاريخاً.

ولا يمكن للباحث المنصف أن يقارن بين الطريقة التي سار عليها علماء اليمن في تدوين أخبارهم وأشعارهم بالطريقة التي سلكها علماء العراق في مدينتيه اللتين كانتا مركزين من مراكز الثقافة العربية إبان نشأتها مقارنة تفاضل، لضالة حظ اليمنيين من العلوم العربية بالنسبة لأئمة اللغة والأدب في البصرة والكوفة وبغداد.

وما أحاوله الآن هو لفت النظر إلى هذا الاختلاف الذي نجده في مصادر كتب الأدب القديمة سواء منها ما ألف في جنوب الجزيرة أو في شامها الشرقي.

فهل من السائع اتخاذ هذا الاختلاف وسيلة لإطراح ما وصل إلينا في المؤلفات اليمنية من أخبار العرب وأشعارهم ما دما نعوّل من حيث الثقة بما دونه علماء العراق؟

إننا بهذا نفقد جزءاً مهماً من تراثنا لا نجد له بديلاً في المؤلفات المشهورة المعروفة.

بل لا نغالي إذا قلنا: إن في مؤلفات الهمداني ونشوان وغيرها عن القبائل العربية وعن بلادها في جنوب الجزيرة ما لا نجده في المؤلفات الأخرى التي وصلت إلينا.

ولهذا فينبغي أن نتلقى تلك المعلومات بكثير من التعمق والدراسة، والنظر إلى ما قد يعرض لنا فيها من وجوه الإشكال أو الاختلاف نظرة المدرك لروح العصر الذي ألف فيه تلك المؤلفات والحوافز التي دفعت إلى تأليفها.

حمد الجاسر

تاريخ المدينة المنورة

لعمر بن شبة النميري (١٧٣/٢٦٢ هـ)

- ٣ -

١٦٠ - وفي ص: ١٠٧١: (مع بلوى تكون) وما في الأصل: (مع بلاء سيكون) بلا همز ولا نقط.

وفي الصفحة: (وبشره بالجنة) وفي الأصل: (وابشره بالجنة).

وفي الصفحة: (افتح عن الرجل وبشره بالجنة) وقال المحقق: (في الأصل افتح عن الجنة، وهو خطأ اقتضى التصويب). والواقع أن ما في الأصل مطابق لما في المطبوعة، فلعل الخطأ وقع في المنقول عن الأصل.

١٦١ - ص: ١٠٧٥: (فأقبل خالد بن الوليد بكتيبة أكيدر صاحب دومة الجندل). كلمة (كتيبة) في الأصل بدون نقاط وقد تقرأ (بكس).

١٦٢ - وفي ص: ١٠٧٨: (لم تغزوا بقلب رجل واحد). كلمة (لم تغزوا) مخالفة لما في الأصل القرية من (لم تصغوا).

وفي الصفحة: (قال: وكيف أنتم إن قتلتموه؟). وفي الأصل: (قال: فكيف أنتم إن قتلتموه؟).

١٦٣ - وفي ص: ١٠٧٩: (وَأَزْفَرَاهُ، وَأَزْفَرَاهُ، وَأَزْفَرَاهُ) والزاي في المواضع الثلاثة في الأصل مقوسة كالدال (د) وفوق الأولى نقطة. (واذفراه).

١٦٤ - وفي ص: ١٠٨٣: (قال: فاتحدوا فكلُّ شديد). كلمة (فاتحدوا) ليست كما في الأصل، وما بعدها (أفكل شديد). وقد تكون الجملة (فأخذه أفكل شديد) - كما سيأتي ص: ١٠٨٤ (فأخذه من ذلك أفكل - أي رعدة).

١٦٥ - وفي ص: ١٠٨٦: (ما هذا المُنْحَى). الكلمة الأخيرة لا تطابق

صورة ما في الأصل (الحى) التي تقرأ (النَجِيّ) وهي أقرب معنى لسياق الكلام،
فالقوم خَلَوْا في جانب من الدار يتناجون بينهم. وقد وردت الكلمة مرة ثانية -
ص ١٠٨٨ - .

وفي الصفحة: (قد أخذ منك بالحنو فُدِّحَتْ). كلمة (بالحنو) في الأصل تشبه
(بالْبُحْنُو) بدون نقط. والبُحْنُو من معانيه البُرْسُ الصغير، وقد تكون الكلمة
(بالمُحْنُو) وهي أقرب إلى المعنى المراد.

وفي الصفحة: (وكنا بين يديه نسمعه عابساً) كلمة (نسمعه) في الأصل تقرأ
(شمعة) ولكن كلمة (كنا) مطابقة لما في الأصل، وقد تكون خطأ من الناسخ وأن
صواب الجملة: (وكان بين يديه شمعة، عابساً) حال من كلمة (فخرج) في أول
الجملة. أما كلمة (نسمعه) فهي قلقة في الجملة. وأشار المحقق إلى أن الخبر في
«طبقات ابن سعد»: ٢٣٢/٥ - ولم أعثر عليه فيها في طبعة بيروت.

١٦٦ - وفي ص: ١٠٨٨: (فما أدخل هذا الاعرابي بيتنا). كلمة (بيتنا)
شبيهة بكلمة (بيتك).

وفي الصفحة: (ولو صَلُّجْتُمْ أَحَبَّ إلى من نفسي) والصواب: (ولو صَلَّحْتُمْ
كُتْم) الخ - كما في الأصل.

وفي الصفحة: (تُبُّ إلى الله يُثْبُّ عليك). وما في الأصل: (تُبُّ إلى الله يُتْبُّ
عليك).

١٦٧ - وفي ص: ١٠٩١: (حدثنا نعيم بن محمد قال: حدثنا الفضل بن
موسى). في الأصل: (نعيم بن حماد) وهو الصواب، كما يتضح من ترجمة نعيم بن
حماد في «تهذيب التهذيب» حيث ذكر من مشايخه الفضل بن موسى.

وفي الصفحة: (يا قاص كذا وكذا). والصواب: (يا ماص كذا وكذا) وهي
كلمة شتم من المص، ويوضح هذا ما ورد بعدها: (لا تشتم أمي).

١٦٨ - وفي ص: ١٠٩٢: (ونشبت في الطعن على إمرتكم). وما في الأصل:

(وَبَشْتُمْ فِي الطَّعْنِ عَلَى أُنْتُمْكُمْ). والباء غير منقوطة بحيث تقرأ تاء.
وفيها: (فلا يتزعن أمركم من أيديكم، ولا يخرجن من بين أظهركم). والذي
في الأصل: (فليتزعن) و (ليخرجن).

ويحسن مراجعة الخبر في كتاب «الإمامة والسياسة».

وفي الصفحة: (أني قد أبحثها). والصواب ما في الأصل: (أني قد أبحثه) أي
الحِمْي. وكذا في كتاب «الأوائل» للعسكري: ٢٥٨/١ - الطبعة الثانية فقد أورد
الخبر عن ابن شبة.

١٦٩ - وفي ص: ١٠٩٣: (ثُمَّتْ بِأَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِثْلَ رَجِيهِ بِي
لَأَوِيَاهُ). كلمة (ثُمَّتْ) في الأصل (لَهُ) وبها يستقيم الكلام.

وفيها: (من هو أشرف منه، بعث الله رسوله فأسرعتن إلى الله). وفي الأصل:
(من هو أشرف منه، ومن تقطع الأمور عليه، بعث الله رسوله) الخ. وجملة (ومن
يَقْطَعُ الأمور عليه) واردة في «الأوائل»: ٢٥٩/١ - وقد ورد فيه الخبر عن ابن
شبة.

مركز توثيق التراث الحضاري

وفي الصفحة: (فتركه من يده). وهي: (فتركه في يده).

١٧٠ - وفي ص: ١٠٩٧: (وما يُغْضَبُ أَمْرُنَا إِلَّا بِكَ). كلمة (يغضب)
صوابها: (يُغْضَبُ) بالعين المهملة، وكذا هي في الأصل، أي يُجْمَعُ -
وفيها: (ولئن لا يَشْنَأُ لَنَكُونَنَّ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْكَ). كلمة (لا يَشْنَأُ) في
الأصل (لا بسناك) والباء ليست منقوطة.

١٧١ - وفي ص: ١٠٩٨: (لا تمثلوا به فيمثل بكم). قد يُقرأ ما في الأصل:
(لا تميلوا به فيميل بكم) لعدم إعجام الحروف.

وفي الصفحة: (قام الأمر فأقمتم به). تقرأ: (قام الأمر ما قُمْتُمْ بِهِ)
وفيها: (إِنَّ الْفِتْنَةَ تَنْبِتُ عَلَى ثَلَاثٍ: عَلَى التَّخَوُّنِ، ثُمَّ السَّكُونِ، ثُمَّ الْخَلْعِ).

وكلمة (التَّخُون) تقرأ (النَّجوى) وهي بدون نقط

وفي الصفحة: (حدثنا القاسم بن الفضيل). وفي الأصل: (القاسم بن الفضل) وهو الصواب - وترجمته في «تهذيب التهذيب»: ٣٢٩/٨ - ولكن القاسم هذا توفي سنة سبع وستين ومئة. فلم يدركه ابن شبة، فهل سقط اسم شيخ ابن شبة الراوي عن القاسم بن الفضل؟

١٧٢ - وفي ص: ١٠٩٩: (وما كان لي على قسره من سبيل). كلمة (قسره) ليست كما في الأصل: (شره) سِنْ قبل الشين المعجمة ليس قافاً، قد تكون نوناً أو باء، وقد تكون الكلمة محرفة.

١٧٣ - وفي ص: ١١٠٠: (إنهما اثنتان تأكلان الثريد). تقرأ الجملة: (إنهما ابنتان تأكلان البرير) والبرير ثمر الأراك، أي إنهما في صغرهما تأكلان ثمر الشجر - أي عاشتا بَدَوِيَّتَيْنِ -
وفي الصفحة:

لساني طويل فاحذرَنَّ شِدَاتِهِ عليك وسيفي من لساني أطول
صدر البيت غير مستقيم وزناً إلا إذا غيّرت (شِدَاتِهِ) بكلمة (شَبَاتِهِ) أي حَذَه -
والصدر في الأصل: (لساني طويل فاحذر من سِدَاتِهِ) كذا وأشار المحقق إلى أنه
مذكور في «أنساب الأشراف»: ٤٨/٥ -

١٧٤ - وفي ص: ١١٠٢: (فقام رجلٌ من بهز). وفي الأصل: (فقال فيهم رجلٌ من بهز). وغير المحقق كلمة (فقال) بكلمة (فقام) ولعله كان مصيباً.
١٧٥ - وفي ص: ١١٠٣: (مَرَّبْنَا عَثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ مَرْحَلًا مُعَذِّقًا). كلمة (مَرْحَلًا) صوابها: (مَرْجُلًا) بالجيم - من ترجيل الشعر.

وأما (معذقا) فالدال في الأصل مهملة وهي في مطبوعة تاريخ ابن عساكر - «تاريخ مدينة دمشق» - ترجمة عثمان ص ٢٧١ - (مُعَذِّقًا) وفسرتها المحققة بما

نقلته من «اللسان»: (أغدف قناعه أرسله على وجهه فهو مغدّف).

١٧٦ - وفي ص: ١١٠٤: (فأخذتُ بمنكبه ثم لَفَفْتُه). الكلمة الأخيرة صوابها ما في الأصل (لَفَفْتُه) أي جعلته يلتفت وكذا هو في «تاريخ ابن عساكر» ترجمة عثمان - ٢٧٠ -

وفي ص: ١١٠٥: (بينما نحنُ مع رسول الله ﷺ على طرف آرة بالمدينة). وفسّر المحقّق آرة بجبل مُزَيِّنَة. ولكنّ هذا الجبل ليس في المدينة. بل خارجها بنحو ثلاث مراحل، ثم إنّ الكلمة ليست واضحة في الأصل.

١٧٧ - وفي ص: ١١٠٧: (أنتجتُ الأحمال). ومع أن الجملة غير مفهومة إلا أن الكلمة الأخيرة (الأحمل). وقد تقرأ (أنيخت) بدل (انتجت).

١٧٨ - وفي ص: ١١٠٩: (حين خالطت الناس وغفلت الأحاديث). كلمة (غفلت) صوابها: (عَقَلْتُ) أي فهمتها وصرت أحفظها - أي بلغت مبلغاً من العمر مكّني من ذلك - كما يفهم من سباق الكلام.

وفي الصفحة: (ورُفِعَ مصحف من إحدى الحجر فقيّل: يعلمه مَنْ عَرَفَ أن محمداً بَرِيءٌ ممن فَرَّقَ دينه). كلمة (يعلمه) في الأصل: آخرها الف قبل (ان) وقد تقرأ (تعلموا) أما المحقّق فيرى الألف سَهْماً أشير به إلى سقط وانه أضاف (عرف) ليستقيم الكلام. ولينظر «تاريخ الطبري»: ٢٩٧٩/٦.

١٧٩ - وفي ص: ١١١٠: (للخليفة من بعد نوح). قد تكون كلمة (الخليفة) بالفاء هي الصواب، إذ الخبر يتعلق بالخليفة عثمان.

١٨٠ - وفي ص: ١١١٢: (ونُلجِجَكَ بجبل الدخان. لست هناك). سقطت كلمة (فقال) قبل (لست) وهي في الأصل.

١٨١ - وفي ص: ١١١٤: (إِلَهُمَّ جَمِي، يرعون فيه عرباء، فنفلت ذلك لهم) كلمة (عرباء) في الأصل: (عرباً) وقد تكون (عَزَباً) وكلمة (فنفلت) هي (ففعلت). وكلمة (عَزَباً) أنسب أي يُعزَّبون فيه أنعامهم لِيسَعَتِهِ.

وفي الصفحة: (وإن كرهتُم فغيروا، أو فلا تُقروا). الكلمة الأخيرة في الأصل: (أولا فلا تقروا). وقد تكون خطأ من الناسخ.

١٨٢ - وفي ص: ١١١٥: (فعل شيئاً بغير حق). وفي الأصل: (قتل نفساً بغير حق).

١٨٣ - وفي ص: ١١١٨: (فاتق الله ألا تكون ذلك الرجل). كلمة (ألا) في الأصل (لا).

وفي الصفحة: (أشر الثنايا). وفي الأصل: (ابس) وفوق السين علامة الإهمال (٧) فإذا صَحَّتْ فقد تكون مأخوذة من البَسَّ - كَالْبَثِّ - وهو التفريق، أي إن ثناياه مفرقة.

وفيها: (ومعه محمد بن بكر). وهو محمد بن أبي بكر.

١٨٤ - وفي ص: ١١٢٠: (إن ابن أبي حذيفة إمامٌ حَلَّالُهُ كما علمت). وما في الأصل يقرأ: (إمام ضلالة كما قد علمت).

١٨٥ - وفي ص: ١١٢٢: (بظفي بك ثائرة). كلمة (ثائرة) في الأصل (نائرة). والنائرة حالة هياج الناس وثورتهم.

١٨٦ - وفي ص: ١١٢٣: (ليقوموا بضررك). والصواب: (ليقوموا بِعُذْرِكَ).

١٨٧ - وفي ص: ١١٢٤: (بسيف ينبوع عن المؤمن، ويحير على الكافر). كلمة (يحير) تشبه (يجهز) وإن لم تكن الهاء كاملة التقويس.

١٨٨ - وفي ص: ١١٢٥:

أَبَتْ كَبْدِي - لَا أَكْرَهْنِكَ قَتْلَهُمْ عَلَيَّ وَتَأْبَاهُ عَلَيَّ أَنَامِلِي

كلمة (لا أكرهنك) تقرأ: (لا أَكْذِبُنْكَ)

١٨٩ - وفي ص: ١١٢٧: (أشرف عليه يعذروه ويصدوه). وما في الأصل:
(أشرفوا عليه فعزروه ونصروه).

١٩٠ - وفي ص: ١١٢٨: (نضر بن علي بن نضر). والاسم في الأصل بدون
إعجام وهو (نصر بن علي بن نصر) - بالصاد المهملة - مترجم في «تهذيب
التهذيب» - ٤٣٠/١٠ -

١٩١ - وفي ص: ١١٣٠: (قال: أتعجب). وفي الأصل: (قال: العجب).

١٩٢ - ص: ١١٣٤: (فليحق بزرعه). والصواب ما في الأصل: (فليلحق
بزرعه). والخطأ تطبيع.

١٩٣ - وفي ص: ١١٣٥: (فنشرنا المصحف) وفي الأصل (المصحف).

١٩٤ - وفي ص: ١١٣٦: (فرجعتُ بسَيِّهم إلى أمير المؤمنين). وهي
(فرجعت فسبقتهم) إلخ.

وفي الصفحة: (وما صنع الله بكم) كلمة (بكم) صوابها: (لكم).
١٩٥ - وفي ص: ١١٣٨: (آت هاؤلاء). وفي الأصل: (آيت هاؤلاء) أي
(إئت) وفرق بين الكلمتين.

١٩٦ - وفي ص: ١١٣٩: (إلى حُجرة). وهي (في حجرة).

١٩٧ - وفي ص: ١١٤٠: (ولا تُحمى الحمى). وهي: (ولا يُحمى الحمى).

١٩٨ - وفي ص: ١١٤٢: (يونس بن أبي اسحاق الهمداني). وفي الأصل:
(الهمداني). وهو الصواب فالرجل من هَمْدَان - بالذال المهملة - القبيلة اليمنية
لا من هَمْدَان - بالذال المعجمة - المدينة الفارسية، فهو من السَّبِيع بطن من همدان
- يونس بن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني، مترجم في «تهذيب
التهذيب» - ٤٣٣/١١ -

وفيها: (مع أبي ربيعة العنزي) وفي الأصل: (العبدى) بدون نقط. ←

وَأَمَّا الثَّانِي - بعد الجيم بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ مُشَدَّدَةٌ وبعد الألفِ نُونٌ أُخْرَى: - جَبَانَةٌ
عَزَزَمَ بِالْكُوفَةِ، وَيُنْسَبُ إِلَيْهَا بَعْضُ الرُّوَاةِ^(٣).

وَأَمَّا الثَّالِثُ - أَوَّلُهُ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ بَعْدَهَا نُونٌ مُشَدَّدَةٌ وَبَعْدَ الألفِ نُونٌ أُخْرَى: -
نَاجِيَةٌ مِنْ غَرْبِي الْمَوْصِلِ فَتَحَهَا عُتْبَةُ بْنُ فَرْقَدٍ صَلْحًا^(٤).

وَأَمَّا الرَّابِعُ - أَوَّلُهُ جِيمٌ مَضْمُومَةٌ بَعْدَهَا بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ مُخَفَّفَةٌ وبعد الألفِ بَاءٌ
أُخْرَى: - مَوْضِعٌ عِنْدَ ذِي قَارٍ^(٥).

الحواشي:

- (١) لم يَرِدْ هذا الباب في كتاب نصير - فيما ظهر لي -
- (٢) هذا من تعريف نصير، ولكنه أورد الاسم بالألف المقصورة (جَنَابًا) في (باب جَنَابًا وَجَبَانًا وَخَنَابًا وَحَبَابًا) من كتاب الجيم. ولم يَقُلْ: (بلدٌ ناحية البحرين). وحين أورد ياقوت في «معجم البلدان» كلامَ الحازمي عَقِبَ عليه قائلًا: وهذا غلطٌ عجيب، لأنَّ مَهْرُوبَانَ وسيراف من سواحل بَرْ فارس، وكذلك جنابة، وأما البحرين فهي في ساحل بَرْ العرب، قبالة بَرْ فارس، من الجانب الغربي. وكذلك قال الأمير أبو نصير، وعنه نقل الحازمي، وهو غلطٌ منها معاً، وبين جنابة وسيراف أربعة وخمسون فرسخًا. انتهى كلامُ ياقوت فقد أوضح خطأ الحازمي، وبين أنه نقل عن ابن مأكولا، ونص ما في كتابه «الإكمال» ج ٣ ص ٦٧: (وَأَمَّا الْجَنَابِيُّ - بعد الجيم المفتوحة نُونٌ مُشَدَّدَةٌ، وبعد الألفِ بَاءٌ معجمة بواحدة - نسبة إلى جنابة بلدة بالبحرين) - الخ - ونقل محقق كتاب «الإكمال» عن كتاب «التوضيح» لابن ناصر الدين الدمشقي -: (يَحْتَمِلُ أَنْ الْغَلْطَ وَقَعَ لَاشْتِهَارِ الْقَرْمَاطِيِّ أَنَّهُ كَانَ بِالْأَحْسَاءِ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَظَنَّ أَنَّ جَنَابَةَ مِنَ الْبَحْرَيْنِ). انتهى. وقال ياقوت عن جنابة: بلدة صغيرة من سواحل بحر فارس، رأيتها غير مرة، يُدْخِلُ إليها في المراكب في خليج من البحر الملح، يكون بين المدينة وبين البحر نحو ثلاثة أميال أو أقل، وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك، وفي شمالها من جهة البصرة مَهْرُوبَان - إلى آخر ما ذكر - وقد أشار صاحب كتاب «بلدان الخلافة الشرقية» - ص ٣٠٩ - إلى أن خرائب جنابة لا زالت تُرَى - ورسم موقعها على مقربة من جزيرة خارك - المعروفة الآن خطأ باسم (خرج) تقع في الشمال الغربي منها على الساحل، ومهروبان تقع شمال جنابة على الساحل الشمالي للخليج العربي، أما سيراف فتقع في الجنوب من جنابة على ساحل الخليج، بمسافة طويلة (جنابة بقرب خط العرض ٢٩/٣٠ ومهروبان ٣٠/٢٠ وسيراف ٢٧/٣٠ - على وجه التقريب - أنظر خريطة إقليمي فارس وكرمان - من كتاب «بلدان الخلافة» ص ٢٨٣ -).
- ويظهر أن الحازمي رجع إلى كتاب «الإكمال» لابن مأكولا في ذكر المنسوب إلى جنابة. وشهرة

القرامطة تكفي عن الحديث عنهم، وقد أفردت المؤلفات في ذكرهم، وشجنت كتب التاريخ بأخبارهم.

(٣) قال ياقوت: الجَبَانُ - في الأصل الصحراء - وأهل الكوفة يسمون المقابر جَبَانًا كما يُسمَّى أهل

البصرة المقبرة، وبالكوفة تحال تُسمَّى بهذا الاسم، وتضاف إلى القبائل منها: جَبَانَةُ كِنْدَةَ، وجَبَانَةُ الشَّيْح، وجَبَانَةُ مَيْمُون، وجَبَانَةُ عَرْزَم نُسب إليها بعض أهل العلم عَرْزَمِيًّا، وجَبَانَةُ

سالم، وغير هذه - انتهى باختصار وقد ورد إسم عَرْزَم بتقديم الراء المهملة على الزاي، على عكس ما ورد في مخطوطة كتاب الحازمي، وما أورد ياقوت هو الصواب، فقد جاء في كتاب

«اللباب» لابن الأثير - ج ٢ ص ١٣١ - العَرْزَمِي: هذه النسبة إلى عَرْزَم قال: وظني أنه بطن من فزارة، وجَبَانَةُ عَرْزَم بالكوفة معروفة، ولعل هذا البطن نزلوا بها فَنُسِبَت إليهم - ثم ذكر

المنسوين إلى عَرْزَم - ومنه يظهر أن النسبة إلى عَرْزَم لا إلى الجَبَانَةِ، كما يفهم من كلام الحازمي.

(٤) لم يرد ياقوت في «معجم البلدان» على القول: الحَنَانَةُ - تانيث المشدّد قبله - هي ناحية من

غربي الموصل، فتحها عُتْبَةُ بن فَرْقَدٍ صُلْحًا. انتهى. وعُتْبَةُ صحابي من بني سُلَيْم ثم من بني رِفَاعَةَ منهم، وقد فتح الموصل سنة ثمان عشرة، مع عياض بن غنم، وكان من ولادة عمر بن الخطاب.

(٥) قال ياقوت في «معجم البلدان» - الجَبَانَةُ - بالضم وقد تقدم اشتقاقه في الجَبَاب - وهو موضع

عند ذي قار، كان به يوم الجَبَابَات، وقد تقدم. قال أبو زياد: الجَبَانَةُ من مياه أبي بكر بن كلاب. انتهى وقال عن الجَبَاب: هو شيء يعلو ألبان الإبل كالزُّبْد، ولا زُبْد لها. وقال عن

الجَبَابَات: موضع قريب من ذي قار، كانت به إحدى الوقائع بين بكر بن وائل والفرس. قال الأغلب:

أما الجَبَابَات فَقَدْ عَشِينَا بِفَاقِرَاتٍ تَحْتَ فَاقِرِينَا

يَتَرَكْنَ مَنْ نَاهَبْنَاهُنَّ زُهَيْنَا

وقال أبو أحمد: وهو أيضاً يوم الجَبَابَةِ، موضع جب في ديار أود بن سعد العَشِيرَةِ، كانت فيه وقعة بينهم وبين الأزد، والجَبَابَات أيضاً ماء بنجد، قُرْبَ البَحَامَةِ. انتهى.

فظهر مما تقدم أن الاسم يطلق على مواضع:

١ - أحدها في شرق الجزيرة، غرب الكوفة، على مقربة منها، عند ذي قار.

٢ - ماء من مياه أبي بكر بن كلاب، ومياه هاؤلاء وبلادهم في عالية نجد، وأخشي أن الجَبَابَةِ التي من مياه بني أبي بكر هي التي أوردتها صاحب كتاب «بلاد العرب» - ٣٦ - باسم الجَبَابَةِ، وذكرها ياقوت بهذا الاسم لربيعة بن قرط من بني أبي بكر.

٣ - موضع في ديار أود، وديار هاؤلاء جنوب الجزيرة في اليمن.

أما المواضع التي ذكرها نصر مع (جَبَابًا) فهي - على ما جاء في كتابه -:

١ - جَبَانًا - بفتح الجيم والياء الموحدة وآخره نون وألف مقصورة - ناحية من السواد قريبة من الأنبار ومن مدينة السلام - انتهى. إقتصر ياقوت على القول: جَبَانًا - بالفتح وبعد الألف نون - ناحية بالسواد، بين الأنبار وبغداد. انتهى.

٢ - حَنَانًا: قال نصر: وأما بفتح الحاء المعجمة والنون وآخره ثاء مثلثة وألف مقصورة - -

مطير : فروعها وأفخاذها

كتب الأخ ماجد بن طاهر المطيري إلى مجلة «العرب» :

أفيدكم علماً ومعرفةً بنفسي أنني من قبيلة السلالحة من بني عبد الله من مطير. وحيث أنه سبق أن كتبت كُتُبَ عن تقسيمات قبيلة مطير. ورد فيها أنها قسمان فقط. وحقيقة الأمر ليس كذلك. بل تنقسم مطير إلى ثلاثة أقسام رئيسة. وسبق أن وردكم عدة رسائل حول ذلك. من متعب بن نومي بن جبرين ومن ضيف الله بن محمد المطيري. وقد أجبتم بأن من كان لديه أية معلومات فليتفضل بها مشكوراً. وها أنا أتقدم لكم بالمعلومات المرفقة.

علماً أن الجواب ليس لي وحدي بل هناك الكثير ممن ينتظر الإجابة.

ولكثرة الإلحاح المتواصل من بعض رؤساء (مُطِير) لأنهم علموا أن هناك من الكتب تناقلت الكتابة عن قبائل (مطير) وتقسيمها إلى قسمين فقط. فاستغرب أهل الرأي والمعرفة وأهل الخبرة منهم كيف تم هذا التقسيم وهل هناك دليل قائم عليه؟

مركز توثيق وتحرير علوم رسيدي

ومن المشائخ الذين ألحوا عليّ في هذا الصدد: علي بن جبرين ومتعب بن نومي

→ موضع نُجْدِي. ولم يَزِدْ ياقوت على القول: خَنَائًا: موضع بنجد - عن نصر - وما أكثر مواضع نَجْد!! ولا أستبعد عدم صحة الضبط، وأنه الموضع الذي ورد في كتب اللغة باسم ذي خَنَائًا، ورد في قول الشاعر:

شَدَّ لَهَا الذُّئْبُ بِذِي خَنَائِي مُسْتَحْنِكُ الظُّلُمَاءِ وَالْأَمْلَاثِ

الأملاث - جمع مَلْث - وقت اختلاط الظلام عند العشاء وعند طلوع الفجر -
٣ - حَبَابَاءُ: قال نصر: وأما بفتح الحاء المهملة وباءَيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ والِفِ ممدود - : جبل نُجْدِي من سبعة أجبل تُسَمَّى الأكوام، وهي مُشْرِفَةٌ على وادي الجَرِيب. انتهى. وفي كتاب «بلاد العرب» - ٧٦ - : الأكوامُ جبال لغطفان ثم لِفَزَارَةَ، وهي مُشْرِفَةٌ على بطن الجريب وهي سبعة ... عن يسار عَوَارَةَ ... وأسماءها: كَوْمُ حَبَابَاءِ وَالْعَاقِرُ، وَالصُّمُغْلُ وكَوْمُ ذِي بِلْحَةٍ. انتهى ملخصاً، والجريب يعرف الآن باسم الجربير من أشهر روافد وادي الرُّمَّة، ويظهر أن الأكوام على مقربة من طرفه الشمالي قبل اجتماعه بوادي الرمة.

بن جبرين ومتعب بن فيصل بن سقيان وكُمَيْخُ المُرَيْخِي ونائف بن سلطان بن درويش وعَجْمِي بن قُطَيْم بن ضَمْنَةَ، وبجَاد بن مِرْنَان، وعويض بن مطلق بن لويحق وصقر بن شَلَّاح والشيخ فهد بن مرزوق التَّوْ - من موظفي الدعوة والإرشاد في المنطقة الشرقية.

وبعد أن أمدوني بالمعلومات وجدت أمامي أنه ليس من الممكن أن أبحث مع الأدباء والمؤرخين والكتاب قبل أن أبحث مع الرواة وأهل المعرفة منهم. ووجدت أن صحة تقسيم قبيلة (مطير) إلى ثلاثة أقسام رئيسة، كل قسم له أماكن يقطنها وعِزْوَةٌ يعتري بها، ورئاسة مستقلة ليس لها علاقة بالأقسام الباقية.

وهم بنو عبدالله.

وعِلْوَى.

وبرِيَه.

فعزوة قبيلة بني عبدالله تضمنها بيت شعر للشيخ جهر بن شرار:

عِيَا الْوَلِي: وَالْعِزْوَةُ الْعَبْدَلِيَّةُ عِبَادِلِ سُورِ الْحَرَايِبِ وَمُضْجِينِ
عِزْوَتُهُمْ (أولاد عبَّاد). *مرزوقية كوتير صومر رسيدي*

وقبيلة بني عبدالله غنية عن التعريف في العصر الجاهلي وفي الإسلام وفي الوقت الحاضر. وليس لها ارتباط بالأقسام الباقية. وهم ينقسمون إلى قسمين: قسم يتبع قبيلة عِلْوَى، وقسم يتبع قبيلة بَرِيَه. وهذا غير مقبول عندهم إلا أن هذه التقسيمات والعزاي والرياسات المستقلة شواهد ثابتة لفرز كل قبيلة على حدة. وهناك دلائل أخرى تكفي لإيضاح تقسيم هذه القبائل وهي الحروب التي سبق أن حدثت بين قبيلة (عِلْوَى) في عهد الحُمَيْدِي بن فيصل الأعور جد فيصل بن سلطان الدويش وبين قبيلة (بَرِيَه) في عهد فِدْعُوش المُرَيْخِي. وامتدت تلك الحروب فشملت قبيلة (بني عبدالله) إذ السبب هو اعتداء من عِلْوَى على أحد رجال بني (عبدالله) يدعى (الرُّخْل) من ميمون، وقد استجار بالمرينجات من قبيلة

(بُريّه) واستمرت الحروب بين الطرفين سبع سنوات . وانتهت باتفاق الطرفين على الصلح بالتحكيم . فحكمت (علوى) حاكم حائل عبدالله بن رشيد آنذاك . وحكمت قبيلتنا (بُريه وبني عبدالله) هادي بن قرملة ، رئيس قبائل (قحطان) وذلك بعد وفاة الحميدي بن فيصل الأعور ، وبعد قتل فدغوش المريخي في نفس الحرب .

وهذه شواهد يكتفي بها لهذا التقسيم . وأخيراً أرجو من كل من كتب عن هذا الأمر أن يعيد النظر فيما كتب مشكوراً . وإني أعلم كل العلم أنه اجتهد منهم : ولكن لعدم المصادر التي يرجعون إليها اختصروا الأمر على معلومات غير وافية .

١ - بنو عبدالله : فروعها وأفخاذها :

ينقسم بنو عبدالله إلى خمسة فروع : بنو عون وميمون . والصُعبَة ، والشلّاحة ، والهويملات .

١ - ينقسم بنو عون إلى بطنين . بطن ذوي أصيّم وبطن ذوي سُويعد ، وينقسم بطن ذوي أصيّم إلى أربعة أفخاذ .

١ - السقّايين واحدهم : (سقيّاي) .

٢ - الهدابيين (هدباني) .

٣ - الكماهين (كميهي) .

٤ - بني شطيّط (شطيطي) .

بطن ذوي سويعد وهم اثنا عشر فخذاً :

١ - الجبارية (جبريني) .

٢ - البراكتة (بريكيّتي) لم يرد ذكرهم في «معجم قبائل المملكة» .

٣ - المحانية (مُحْناء) .

٤ - السلايمة (سليمي) .

٥ - القنينات (قنينان) وقد ذكروا في «المعجم» من العضيلات خطأ .

٦ - الحرصان (حريّص) .

٧ - العساف (عسافي) لم يرد لهم ذكر في «المعجم».

٨ - ذوي بدير (بدراني).

٩ - الموازين (ميزاني).

١٠ - الحلف (حلفي).

١١ - العزايزة (عزيزي).

٢ - ميمون بطنان الصردان، وُغْرَابَة، وهذه أفخاذ البطن الأول -
الصردان :-

١ - الوهيطات : (وهيطي).

٢ - السكّان : (سكاني).

٣ - الشوايبة : (شويّب).

٤ - العيايين : (عياني).

٥ - الهويّان : (هوياني).

٦ - الرُّخَال : (رخل).

٧ - المحاميد (محمدي).

البطن الثاني من بطون ميمون : غُرَابَة خمسة أفخاذ:

١ - السميحات (سميحي).

٢ - السلامين (سلماني).

٣ - الهداين : (هدباني).

٤ - الجُرُوة : (جرو).

٥ - الرّمائية : (رميثي).

٣ - بطون الصعبة : سبعة:

١ - الهجّال : (هجلة).

٢ - الوطابين : (وطيباني).

٣ - المخافرة : (مخيفري) لم يرد ذكرهم في «المعجم».

٤ - العضيلات : (عضيلة).

٥ - المهالكة : (مهلكي).

٦ - المشاريف : (مشرافي).

٧ - الشُّطْر : (شاطري).

٤ - بطون قبيلة الشلاحة : ثمانية :

١ - القمشان : (قميشي).

٢ - الذُّهَيَّات (ذهيبي) لم يذكروا في «المعجم».

٣ - السَّمُون : (سمني) لم يذكروا في «المعجم».

٤ - المُعَوَز : (ماعزي) لم يذكروا في «المعجم».

٥ - الرحامين : (رحيمي).

٦ - الضبطان : (ضبيطي) لا أضبط كما ورد في «المعجم».

٧ - القعوان : (قعَيَّاني).

٨ - المواق : (مايقي).



مرکز تحقیقات کتب و اسناد

٥ - بطون الهوميلات : ثمانية بطون :

١ - الشباشرة : (شبيشيري).

٢ - الحنانيش : (حنوشي).

٣ - الربعان : (ربعي).

٤ - الحماين : (حمياني).

٥ - الجعافرة : (جعفري).

٦ - الظوافرة : (ظويفري).

٧ - العقالية : (عقيلي).

٨ - اليَّيس : (يابسي).

٢ - قبيلة علوى و بطونها :

العزوة: خَيَالُ الْعَلْيَا: أما بطون قبيلة عِلْوَى فهي ثلاثة وهذا بيانها مع ذكر
أفخاذها:

- ١ - الْمُوهَةُ: سبعة أفخاذ:
 - ١ - الدوشان.
 - ٢ - الخواطرة.
 - ٣ - الجُبْرَة.
 - ٤ - الصُّعَانِين والرئاسة في الأفخاذ المذكورة في بيت الدويش.
 - ٥ - الجداعين (بالدال المهملة بعد الجيم).
 - ٦ - البراعصة ورئيسهم السُّور.
 - ٧ - الرُّخَّان ورئيسهم ابن زُرَيَّان.
- ٢ - الجُبْلَان: وهم خمسة أفخاذ:
 - ١ - القُعِيَّات: (بن لامي).
 - ٢ - الأَعْنَة.
 - ٣ - العِراقِبَة ورئيس الأفخاذ الثلاثة ابن لامي.
 - ٤ - المِقَالِدَة: ورئيسهم ابن رَشْدَان.
 - ٥ - اليَحْيَا: ورئيسهم ابن شُبْلَان.
- ٣ - بنو عَوْن: انضَمُّوا إلى قبيلة عِلْوَى وَيُعَدُّون منهم، وهم الصُّهْبَة
والمَّلَاعِبَة، وهذه أفخاذ الصهبة:
 - ١ - الصُّهْبَة، وهم فَخْدَان:
 - ١ - الفُغْمَة.
 - ٢ - المطيرات.
 - ٢ - المَّلَاعِبَة: فخذان:
 - ١ - المَّلَاعِبَة.

٢ - الأُمْرَةُ بعد الألف ميم مكسورة فراء مفتوحة مشددة، فهاء.

٣ - بُرْيَه وبطونها:

العزوة: خيال الخيل بريهي. وبُرْيَه بطنان: وأصل، والصُّعْرَان. وأفخاذ
بطن وأصل عشرة:

١ - المُرْيَخَات: (مُرْيَخِي).

٢ - البدناء: (بَدِين).

٣ - العُبَيَّات: (عُبَيَّوِي).

٤ - الهوامل: (هَامِلِي).


٥ - البرزان: (بِرَازِي).

٦ - الدياحين: (دَيَّحَانِي).

٧ - المحالسة: (مُحَلِّسِي).

٨ - العوارض: (عَارِضِي).

٩ - العفسة: (عَفْسِي).

١٠ - الوَسَامِي: (وَسَمِي).  *مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی*

٢ - أفخاذ البطن الثاني من بُرْيَه وهم الصعران: ثمانية:

١ - البصايصة: (بَصِيصِي).

٢ - الشتيلات: (شَتِيلِي).

٣ - الشعالين: (شُعْلَانِي).

٤ - ذوي غنمي: (غَنَمِي).

٥ - العبادين: (عَبْدَانِي).

٦ - الهدلان: (هَدْلَانِي).

٧ - الحمادين: (حُمَيْدَانِي).

٨ - ذوي سعدون: (سَعْدُونِي).

الرياض: قيادة القوات الجوية - الشؤون الدينية. ماجد بن طاهر المطيري

المساعيد من بني عقبة

تلقيت من الأخ الكريم راشد بن حمدان بن راشد الأحيوي المسعودي في مدينة العقبة كتاباً هذه خلاصته :

ذكرت في كتابك «معجم قبائل المملكة السعودية» أنَّ المساعيد الذي يسكنون البِدْعَ في الحجاز. ذكرت أنهم من الحويطات وأود توضيح الآتي : —

إن أول من نسب المساعيد إلى الحويطات هو فؤاد حمزة في «قلب جزيرة العرب» ويبدو أنَّك تابعته على ذلك.

مع أن المساعيد ينتسبون إلى قبيلة عُتَيْبَةَ للأدلة التالية : —

* أن المساعيد في الحجاز يؤكدون ذلك.

* حدثني الدكتور يوسف الضامن من مساعيد نابلس أن المساعيد ينتسبون إلى عُتَيْبَةَ وقال لي : إن الشيخ مشهور الضامن مفتي مدينة نابلس سابقاً قد تعرف بمساعيد عُتَيْبَةَ — وهم من فروع النُفَعَةِ — وقد كان كبيرهم مُقْعِدَ الدُّهْنَةِ.

* أن نَعُومَ شُقَيْرَ في «تاريخ سيناء» عند حديثه عن الأحيوات وهم من فروع المساعيد قال : إن المساعيد كانوا يقطنون بلاد نجد.

* وجود فرع يحمل اسم المساعيد في بلاد نجد وهم قوم الدُّهْنَةِ.

ملاحظات : ذكر الجزيري في «الدرر الفرائد» أن المساعيد من بني عطية ثم ذكر فريقاً آخر من بني عقبة، وذكر أن الأحيوات من بني عطية.

إلا أن الحقائق تنفي ذلك لما يلي :

أن المساعيد ذُكِرُوا قبل الجزيري ، ولم ينسبهم أحدٌ ممن ذكرهم إلى بني عطية أو بني عقبة ومن ذكرهم :

١ - الحمداني - ذكر القلقشندي ذلك نقلاً عنه - في «نهاية الأرب» وقد ذكرهم القلقشندي مرة أخرى في كتابه «صبح الأعشى» ج ٤ عند الحديث عن عرب الحجاز، وكتابه «قلائد العقبان» وفي كل كتبه قال: المساعيد بطن من عرب الحجاز دون أن ينسبهم.

٢ - ذكرهم ابن فضل الله العمري في القرن السابع دون أن ينسبهم وقد نشرت مجلة «العرب» بحث ابن فضل الله حيث ذكر المساعيد دون أن يُنسبوا. ومما أود قوله أن بني عطية أنفسهم لا يقولون بانتساب الأحيوات أو المساعيد إليهم. أما عن كون الأحيوات من المساعيد فهذا ما يؤكدُه نسابوا الأحيوات والمساعيد. وذكر ذلك نعوم شقير في «تاريخ سينا» وتابعه على ذلك مؤلف إنجليزي اسمه مرّي في كتاب له عن بدو مصر بعنوان «أبناء اسماعيل» وللأسف فإن الكثيرين خلطوا في نسب المساعيد ومن ذلك:

١ - رفعت الجوهري في كتابه عن سينا نسب المساعيد إلى الأحيوات.

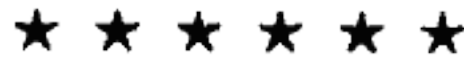
٢ - موسل في كتابه «شمال الحجاز» ترجمه عبد المحسن الحسيني ص ١٥١ نسبهم إلى بني لأم.

٣ - نعوم شقير في كتابه السابق تابع الجزيري في نسبته المساعيد والأحيوات إلى بني عطية.

أُخْلِصُ إلى القول بأن علماء النسب السابقين للجزيري وهم أعلم منه لم ينسبوا المساعيد لا إلى بني عقبة ولا إلى بني عطية. ولعل الباحث في علم النسب يلاحظ أن المساعيد ذُكروا قبل بني عطية أو الحويطات.

وثمة أمر آخر: إن فخذ النشرة أو النشارة الذي يُعدُّ في بني عطية ليس في الأصل منهم، وإنما يُعدُّ معهم وهو ينتسب إلى الأحيوات بقولهم، وقول الأحيوات. لذا فإنني أكتب رسالتي هذه إليكم لاستفيد وأحظى بإجاباتكم الكريمة حول هذه التساؤلات داعياً الله تعالى أن يوفقكم لما فيه الخير.

انتهى كتاب الأخ راشد، الذي يرى - كما يرى غيره من أبناء قبيلة المساعيد - اتصال نسبهم بـ (ذوي مسيعيد) الفخذ المعروف في عشيرة النُّفَعَة من قبيلة عُتَيْبَة .



العرب:

ونسبة المساعيد هذه العشيرة التي تسكن شمال الحجاز وصلتها بقبيلة عتبية يظهر أنها قائمة على أساس تطابق الاسم، للفخذ المعروف باسم (ذوي مسيعيد) من النُّفَعَة من عُتَيْبَة واسم تلك العشيرة.

والتطابق أو التشابه في الأسماء كثيراً ما أوقع الخلط في النسب، وهذا مما عرفه علماء النسب منذ أقدم العصور، فقد ذكر الهمداني في كتاب «صفة جزيرة العرب» ص ١٨٠ من منشورات «دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر» أن في قبيلة حمير في اليمن فخذاً يدعى (الأجعود) وأن هذا الفخذ ينتسب إلى بني جعدة القبيلة العدنانية مع تباعد النسبة، وقد أوضح الهمداني بطلان هذا، وبين أن مثل هذا الأمر يحدث بين قبائل العرب عندما تتفق الأسماء.

ومن هنا أرى أنه لا صلة بين المساعيد وبين ذوي مسيعيد.

واسم المساعيد يطلق على عدد من العشائر منها من لا يزال معروفاً بين قبائل عصرنا مع تباعدها في النسب، ولا داعي للاطالة بذكر أمثلة ذلك، ومعروف أن اسم مسعود من الأسماء المحببة التي تستعمل كثيراً، ولهذا فلا غرابة أن تكثر العشائر التي تنتسب إلى ذلك الاسم.

أما ما أراه صحيحاً وأطمئن إلى صحته فهو أن المساعيد الذين ينتشرون في شمال الحجاز وما اتصل به من البلاد يرجعون في أصلهم إلى قبيلة جُذَام القحطانية النسب، وأنهم من بقايا بني عُقْبَة، القبيلة التي كانت تحل البلاد التي لا تزال بقية المساعيد مقيمة فيها في نواحي البُذْع. فيما بين بلدة ظبا وحقل وقبيلة بني عقبة قبيلة قحطانية، ذات حسب ونسب وكانت لها شهرة في الماضي، حيث تقوم

بخفارة الحجاج القادمين من الشام أو مصر في الطريق البري، قال ابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الابصار في ممالك الامصار» - انظر مجلة «العرب» ص ١٦ - ص ٦١١ - : (وعقبة من جذام، وديارهم من الشوبك إلى جِسْمًا، إلى تبوك، إلى تَيْمًا، إلى بَرْد وُرَواف إلى الحُرَيْدا، وهي شرقي الحِجْر. وآخر أمرائهم كان شَطِي بين عُبَيْة، وكان سلطاننا الملك الناصر قد أقبل عليه إقبالاً أحله فوق السَّمَاكِين، وألحقه بأمراء آل فَضْل، وآل مِرَاء، وأقطعته الإقطاعات الجلييلة، وألبسه التَّشريف الكبير، وأجزل له الحَبَا، وعَمَّر له ولأهله البيت والحَبَا). انتهى كلام ابن فضل الله العمري.

ولا داعي للإطالة بذكر نسب بني عقبة إلى جذام ثم تسلسل النسب من جذام إلى قحطان، فهذا من الأمور المدونة في كتب النسب القديمة.

ومن المعروف أن القبائل عندما تكثر فروعها تنتشر تلك الفروع وتتفرق، فتبرز من بينها أسماء فروع حديثة قد تغطي على الأصل، وهذا هو ما حدث بالنسبة لقبيلة بني عقبة، فقد تفرع منها فروع من أشهرها الحويطات وبنو عطية والمساعيد وبنو شاكر وغيرهم، وبقيت بعض هذه الفروع في منازل أصلهم من بني عقبة ومن بقي فيها عشيرة المساعيد وإخوتهم، واستمرت هذه العشيرة مع الفروع الأخرى تتولى حراسة طريق الحج كما كان أجدادهم يقومون بذلك.

ففي القرن العاشر الهجري يجد الباحث تفصيلاً وافياً عن المساعيد، في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة بأخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»، الذي نشرته «دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر» حديثاً.

والمعلومات التي يحويها هذا الكتاب عن أصل العشيرة مما لا يتطرق إليه الشك، لأمر منها: أن مؤلف الكتاب قد خالط تلك العشيرة عند مروره ببلادها من طريق الحج فنقل ما نقل عن خبره ومعرفة.

ومنها أن تلك المعلومات تدل على تتبع وعناية واهتمام قل أن نجد أمثالها عن - عشائر ذلك العهد.

ومنها أنها تتفق في مضمونها مع ما أشار إليه بعض المتقدمين من انتشار الفروع المتفرعة من قبيلة جذام في تلك النواحي، من أقدم العصور، بخلاف الفروع العدنانية الطارئة من بلاد الحجاز.

وقد يلاحظ الباحث أن صاحب «الدرر» نسب المساعيد آونةً إلى بني شاعر، وأخرى إلى بني عطية، وثالثة إلى بني عقبة، وليس في هذا ما يعتبر تناقضاً أو تضارباً في النسبة، فبنو شاعر وبنو عطية من بني عقبة وفروع بني عقبة قد تختلط أنسابها باختلاط مساكنها، وهذا أمر معروف بين القبائل حتى عصرنا الحاضر.

ويحسن أن نورد نصوص كلام صاحب كتاب «الدرر الفرائد المنظمة» على طولها لما تحويه من تفصيل عن أصل هذه العشيرة وعن فروعها وعمما كانت تقوم به بالنسبة لخدمة الحاج :

١ - قال: (بنو شاعر القفعة وهم بدنات - منهم الزيادات، والعبيات، والأحياد - بضم الهمزة - والطلبيحات، والشنجرية - بتشديد الراء - والمساعيد، والمهانية والعطيات) ص ١١٩٦

٢ - وقال: (فلما تزايد شرور بني عطية... وتبعهم طوائف العربان على مثل فعلهم، كالمساعيد من بني عقبة أولاد الأمير سعيقان وغيرهم.) ص ١١٩٧.

٣ - في الكلام على درك النقب من سطح العقبة إلى جانب البحر وأنه ينقسم إلى أربعة أقسام لأربع بدنات من بني عطية - قال: (القسم الثاني لطائفة المساعيد من بني عطية، ومن أكابرهم عتيق بن مسعود بن دغيم، وعليان بن مشور، وعمران بن حويران من الحوارنة) ص ١٣٣٩.

٤ - وقال: (وأما عربان المساعيد فهم أصحاب درك مبشر الحاج في العود - منهم عتيق بن مسعود بن دغيم، وعيسى قريبه، وعليان بن مشور بن دغيم، ولهم عن درك الباب والضبة بخان عقبة أيلة قديماً خمسة وسبعون ديناراً ونصف دينار، وهي مستمرة الصرف إلى تاريخه، ثم قرّر لمسعود بن دغيم في الأيام المظفرية إنعاماً عليه من غير درك خمسون ديناراً، واستمرت بيد ولده من بعده) ص ١٣٤٥.

٥ - وقال: (في ذكر بَدَنَات العربان من بني عقبة: (أما المسالة فهم أصحاب درك البحر، ولهم من البر جانب البحر فقط، بعيون الْقَصَب، وحد دركهم من جزيرة عَيْنُونَة إلى ما جاوز قبر الشيخ مرزوق الكفافي، وإلى القرب من حضرة دامة آخر درك بني عقبة) ص ١٣٦٣ .

ثم ذكر أن الدرك أثلاثاً لكل فخذ ثلث، فالثلث الأول لطائفة من المسالة تدعى الهشاية ومعهم النجادة، ثم ذكر الثلث الثاني فاستطرد حتى ذكر سلسلة نسب كثير من فروع بني عقبة ومنهم المساعيد. وهاهو نص كلامه: (والثلث الثاني: لطائفة تدعى المقارنة: منهم مُعَزِّي بن سياح بن مجري بن مقرن بن عصيلة بن حسن بن غملاس بن مجري بن مسلم، وهو الذي ينسب إليه طائفة المسالة، فيقال لهم المسالة.

ومسلم بن عقال، وعقال هذا أبو طائفة يقال لها العقالات، وهو أصل من أصول بني عقبة جد العمرو، المناصير والمسالة.

وعقال بن عمرو، وعمرو، وهو والد العُمُر، الذين شيخهم الآن عمرو بن عامر بن داود.

مرکز تحقیقات کتب و تاریخ و علوم اسلامی

وعمر بن سياح، وسياح أبو طائفة الخرشة من بني عقبة، والزبدة والعمرو.

ووالد سياح محمد، ومحمد آل ابراهيم، والمساعيد من بني عقبة.

وعقبة والد بني واصل، وبني عطية، وبني شاكر الحجر، والفقعة وبني واصل حميدة.

ويشارك معزي في الثلث الثاني أحمد بن سبع بن مجري) ص ١٣٦٤ .

٦ - وعد بعض أفخاذ عشيرة المساعيد ويسمى بدنان فقال: (وأما المساعيد من بني عُقْبَة فمنهم بَدَنَات كثيرة، وفروع غزيرة، فلنذكر منها عشرين بَدَنَة، ومنهم أمراء أصحاب مراتب لاتقاء شرورهم، لآعلى درك، وهم أولاد الأمير سعيقان أمير الدُرَّيْن، ومنزلهم الكرك، وحوالي القدس والخليل، وهم الأمير

مرعب وإخوته قضيب وبديع وجماعتهم، وعاداتهم يحضر منهم أو من جماعتهم من يقابل أمير الحاج بِعَقَبَةِ أَيْلَة، في الذهاب، فيقبض ما هو معين له بالدفتر السلطاني، ويتوجه فلا يعود إلا في السنة المقبلة كذلك.

وَبَدَنَاتُهُمْ عَلَى مَا نَذَرَهُ:

النجادية: شيخهم الأمير مرعب بن سعيقان.

العساسفة: من الهويدفية، منهم محمد بن حميد.

الحياجات: رِبَاعَةُ مرعب آل شَطِي، منهم زعر بن معقل.



الجوادرة: منهم عزيز المسعودي.

المغاثة: منهم حجـاج.

المواهرة: منهم بكر بن أبي بكر، وطوق بن طلحة، وقراد وأخوه.

الشرشدية.

النجادية: منهم شكـم بن  صعب ومرعي أبو مخطوم.

الدويسات والهبر: منهم  زويـد بن  رسيـد.

البراغشة: منهم أحمد بن بـذال.

الهويدفية: منهم علوي.

الصنـاع: — بتشديد النون — منهم عبيد بن كحيل.

العساكرية: — بالياء المثناة التحتية المشددة.

النضرة: منهم درع.

النوـيجية: — بنون مشددة وبعد الواو ياء مثناة ساكنة وجيم مكسورة — منهم كلاب.

القِيَّوس: - بقاف مثناة بعدها ياء مثناة تحتية - منهم مِيَّاس.

الحِوَّة: - بحاء مهملة وواو مشددة مفتوحة - منهم زبن سعيدة.

الحطاطبة: منهم مربوط) ص ١٣٦٨ .

بعد هذه التفصيلات التي أوردتها الجزيري عن عشيرة المساعيد مما لم يوردها غيره من المتقدمين لم يَبْقَ مجال للشك في سعة اطلاعه ومعرفته وعلمه بأحوال هذه العشيرة.

أما ما أشار إليه الأخ راشد من أن المساعيد ذكروا قبل الجزيري في مؤلفات ابن فضل الله والقلقشندي - وهما ينقلان عن الحمداني بدون زيادة - فليس في تلك المؤلفات ما يمكن الإعتماد عليه في انتساب تلك العشيرة والجزيري ذكر أصل نسبها، فهو عالم بذلك وهو حجة على مَنْ لم يعرف إلى من تنسب.

ومما ينبغي أن يلاحظ، هو أن الحمداني واسمه يوسف بن زماج كان (مَهْمَنْدَاراً) أي مدير ضيافة في مصر عند حكامها في آخر القرن السابع الهجري، وكان يعتني بالأنساب، فيسجل أسماء القبائل التي تفد إلى مصر، وما سجله كان مرجعاً لمن جاء بعده، ومع الأسف فإن ما سجل عن أصول كثير من القبائل كان ناقصاً، ولهذا نجد في مؤلفات القلقشندي فيما نقل عن الحمداني أسماء قبائل ذات أصول معروفة، ونقل عن الحمداني أنه لم يذكر لها أصلاً. من ذلك شَمَّر والدَّوَّاسر، وهما قبيلتان عريقتان في النسب، ولكن الحمداني ليس بعمق النظرة في ذلك، وسبق أن أشرت إلى أن الجزيري حين نسب المساعيد إلى بني عطية وإلى بني عقبة وإلى بني شاكر أنه يقصد من ذلك اختلاط هذه العشائر التي ترجع إلى أصل واحد وهو عقبة من قبيلة جذام من قحطان.

ويقال هذا في كلام فؤاد حمزة الذي نسب المساعيد إلى الحويطات، فإن الحويطات على ما ذكر الجزيري في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة» فرع من بني عطية، وبني عطية من بني عقبة، فلا تخالف فيما ذكر الجزيري وفؤاد حمزة،

فالأصل واحد، وإنما وقعت النسبة إلى بعض فروع العشيرة بسبب اشتراكها في المنازل واختلاطها.

والقول بأن المساعيد من عرب الحجاز قول صحيح، فبلاد المساعيد الأصلية القديمة هي شمال الحجاز، ولا تزال بقية تلك العشيرة تقيم هناك، فيما بين مدينتي ظبا والعقبة، وتلك البلاد هي بلاد بني عقبة، وقبلهم جذام الذين هم أصل القبيلة.

ونعوم شقير وقع في كلامه - عن أصول القبائل التي كانت تسكن سيناء - أخطاء ليس هذا محل بيانها، وقوله بأن المساعيد كانوا يقطنون بلاد نجد لم يذكر مصدراً لهذا القول من كلام المتقدمين اللذين يعتمد على أقوالهم، ولعله قال هذا حين سمع بأنهم انتقلوا من الجنوب، فظن أن المقصود بلاد نجد، أو أن أحد العامة قال له هذا القول.

وكون بني عطية لا يعرفون انتساب المساعيد أو الأحيوات إليهم، لا يعتبر دليلاً على عدم اشتراك العشيرتين في النسب، فكثير من العشائر جهلت أصولها ومن ثم جهلت الفروع التي تشترك معها في النسب.

بنو لام والمساعيد: أما ما ورد في كتاب موزل «شمال الحجاز» الذي عرّب قسماً منه الدكتور عبد المحسن الحسيني - رحمه الله - عن صلة المساعيد ببني لام، فيظهر أن تعريب الدكتور الحسيني لكلام موزل يحتاج إلى إيضاح، فإن موزل نقل كلام حاجي خليفة في كتابه «جهان نما» في وصف طريق الحج المصري وجاء فيه: (ثم يصل إلى شرف (?)) ويسكنها بنو عطية ويستمر الطريق بين منطقتين جبليتين خلال وادي المطلات حيث يسكن بنو لام، والمنزل المعروف بمغارة شعيب (...). فشرح موزل كلام حاجي خليفة، وجاء في شرحه على ما عرب الدكتور الحسيني - ص ١٥٠ «شمال الحجاز» - ما نصه: (فوادي الأبيض هو ما يسميه حاجي بالمطلات، وأما بنو لام فلم يبق منهم الآن سوى المساعيد). انتهى. ولعل مراد موزل فلم يبق في منازلهم المذكورة سوى المساعيد، وهذا كلام

صحيح، فالبلاد إذ ذاك من بلاد المساعيد، ولكن قبيلة بني لام كانت في القرن التاسع الهجري ذات قوة ونفوذ في تلك الجهات، بحيث سيطرت على طريق الحج الشامي وامتد نفوذها إلى بلاد بني عقبة الذي يمرُّ به طريق الحج المصري، وحصل اتصال بالمصاهرة بين شيخي القبيلتين قبيلة بني لام وقبيلة بني عقبة، ثم حدث سنة ٩٢٦ هـ أن شيخ بني لام ويدعى سلامة بن فواز ويلقب (جُغَيَّان) وهو من المفارجة من بني لام - تعرض لركب الحجاج المصريين ومعه نحو عشرة آلاف نفر، وكان بالقرب من الأزم فيما بين ظبا والوجه، ولكن ركب الحجاج انتصر على سلامة ومن معه، إلا أن الدولة قررت لسلامة في كل سنة من الخزائن السلطانية ألف دينار راتباً له ولأولاده ليكف الشُّرَّ عن الركب المصري ودربه، وضمنه في ذلك صهره عمرو بن عامر بن داود أمير بني عُقبة، وصار وكيلاً عنه في قبض ذلك حتى بعد وفاته، واستمر عُمُرُو على ضمانته وتناوله ما هو مقرر لسلامة.

وقد أوضح الجزيري صلة بني لام بطريق الحج، وبين المواضع التي كانوا يترصدون للحجاج فيها وأكثرها واقع في بلاد بني عقبة فيما بين حقل وظبا. ومجمل القول أن عشيرة المساعيد التي كانت تقطن شمال الحجاز ولها بقية هناك، تتصل بنسبها إلى قبيلة بني عقبة الجذامية القحطانية، وأنها كانت متشعبة الفروع، أما في العهد الحاضر فقد انكششت بعد انتشار كثير من فروعها واختلاطهم بعشائر أخرى خارج بلادها القديمة.

وهذا لا ينفي وجود فروع تنتسب إلى المساعيد من عشائر أخرى بحيث لا تجتمع معهم في أصل النسب.

إلا أن فخذ الأحيوات لا شك باتصاله بنسب هذه العشيرة فقد عد الجزيري هذا الفخذ من عشيرة بني عطية، فقال - ص ١٣٤٥ - : (ومن أعيان بني عطية طائفة الرشيدات) إلى أن قال: (ومنهم طائفة الحوارين وأصلهم حضري منهم عمران بن حويران وهو شريك لعتيق بن مسعود في درك الباب بخان عقبة أيلة.

ومنهم الأحيوات، منهم أولاد أبي سنية، أصحاب درك الدلالة على المياه ←

المضاربة - سكان أبانين -

هم سبعة رجال، جَلَوْا مُنْذُ بِضْعَةِ قُرُونٍ خَلَتْ، عن قومهم قبيلة بني رَشِيدٍ، على أثر فتنة وقعت بين فرعين من فروع القبيلة، فكانت بؤرة الهزة التي أرتجفوا منها، فَأُرْتَحَلُوا صوب جَبَلِ أبانين - اللذين أصبحا موطنين لهؤلاء السبعة الجلوية، ولاحقاً بهم من بعدهم إلى يومِ الناسِ هذا فـ (المُضَابِرَةُ) سكان أبانين يعدون اليوم إحدى قبائل منطقة القصيم المشهورة، وهم أحفاد أولئك السبعة - أصحاب الجلوة التاريخية - ومن يشأ أن يعرف شيئاً عن فروعهم وديارهم وأرومة أصلهم فليُنظر عنهم (مجلة «العرب»: ج ١، ٢ رجب/شعبان/١٤٠٥ هـ ص ١٢٥).

وقبل أن أَلجُ في صلب الحديث عما هو معروف ومأثور عن هذه الجلوة، لي كلمة قصيرة وددت أن أَلحَ إليها، وهي أن قصتنا التي أتحدثُ عنها ليست كغيرها من الحوادث التي يتعرض لها الإنسان من وقتٍ لآخر، فهي تعتبر من أَلحِ القصص التاريخية، طرافة وإثارة، من حيث سيرتها ومسار أحداثها، إنها جديرة بأن يُعنى

→ والأحطاب، من عقبة أَيْلَة إلى شَرْفَة بني عطية، ولهم مقرر قديم من الخزائن السلطانية عشرة دنانير، ومن بني عطية طائفة السوارقة) إلى آخر ما ذكر.

وقد أطلت بإيراد نصوص الجزيري إذ كتابه ليس معروفاً لدى كثير من القراء، مع احتوائه على معلومات قيمة تتعلق بالقبائل التي تقع منازلها على طريق الحج المصري المار بساحل البحر، وقد سجل تلك المعلومات أثناء تروده في ذلك الطريق، إذ كان كاتباً لأمير الحج هو ووالده من قبله في خلال النصف الأخير من القرن العاشر الهجري.

حمد الجاسر

بها أدبياً وتاريخياً، لكونها واحدة من أوفى القصص التي تبين وتحكي لنا حياة وتاريخ ونسب عشيرة، لها شهرة وصيت بين مجتمعتها، فالباحث يجد فيها من نوادر الأخبار الصحيحة، ومن دروس العبر الكثير، وما أنشره عنها هنا من روايات لا تعدو كونها جزءاً أقتطفته من أكليلها.

تاريخ الجلاء: إعتاد العرب في العصور الوسطى لاسيما القبائل منهم التي تعيش متجولة في أرجاء موطنها الأولى داخل الجزيرة العربية أن يؤرخوا أوقاتهم الزمنية منسوبة إلى الحوادث التي تواجههم، سواء كانت خيراً أو شراً، فمصب اهتمامهم يقع على أحداث زمنهم، الذي يعيشون فيه، ولا يكون الحدث بأي حال من الأحوال موضع اتفاق بينهم أبداً، بل تختلف تسميته بين من يعيش هنا ومن يعيش هناك.

ولذلك فمن الصعب جداً أن نعرف بالتمام التاريخ الحقيقي لهذا الجلاء، في عصر جهل فيه التدوين، وعمت الأمية فيه مجتمعاتهم، ولهذا لا نملك شاهداً يوضح لنا زمانها، ولكننا إذا قارنا بعض الشواهد بما يتحدث فيه بعض الرواة، رجحنا القول بأنها وقعت فيما بين أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر، وهذا ما حملني على القول أنها حدثت منذ بضعة قرون لأن (البضع) في اللغة ما بين الثلاثة إلى التسعة.

بواعث هذه الفتنة وأحداثها: اختلف ذوو المعرفة اختلافاً ظاهراً في منشا هذه الفتنة وبواعثها، التي كادت تشمل أطرافاً غير طرفيها، لوبقيا متصدين لبعضهما فترة أطول، فالرواة مختلفون في البواعث، لكنهم متفقون على أن الفتنة وقعت بين فرعي (القعايب) و (النوامسة) من جهة، وبين عصابة قيل إنهم تسعة رجال من فرع (المضايرة) من جهة أخرى، والجميع كلهم من قبيلة بني رشييد، والفتنة في جوهرها لا تخرج عن خلاف أعقبه سوء تفاهم.

أما عن مجريات أحداثها، فالعارفون بها يقولون: اجتمع فرعا القعايب والنوامسة ذات ليلة ليُعِدَّا خطة بمقتضاها يهجمان على عصابة الرجال السالف

ذكرهم بغتة، لينالوا منهم ضالتهم، التي كانت مَبْعَثَ فَرْعٍ لَهُمْ، كل ذلك يجري وفي القعابيب امرأة نَاكِحٌ فِيهِمْ، هي بنتُ لأحد الرجال العصابة من المضابرة، وكانت يومئذٍ نَفْسَاءً، تسمع نجواهم وهم عنها غافلون، فما كان منها بعد أن تيقنت بما عقدوا عليه العزم، إلا أن ربطت بطنها بحزامٍ من حبلٍ ليساعدها على ما تحسُّ به من ألمٍ، فهرعت مُشْمِرَةً عن ساقَيْهَا، فَأَتَتْ أَبَاهَا وعصبتها، فَأَنبَأَتْهُم بما سمعت، وعادت من حيث ذهبت دون أن يعلم أحدٌ بأمرها.

وبواسطة هذه المرأة عَلِمَ الْمُضَابِرَةُ بأن خصومهم سيبيتون من منتصف ليلتهم بما يسمى ذلك الحين بـ (ضُلَيْعِ ضَالٍ)، ليشبوا منه صباحاً عليهم، ولذا بادر المضابرة أنفُسَهُمْ بالوثوب إلى - ضُلَيْعِ ضَالٍ - ليأخذوا الحذر والحِيطة مما عَلِمُوا به، فمالبثوا إلا وخصومهم يصعدون الضُلَيْعِ بِأَتَجَاهِهِمْ سِيراً على الأقدام، فأمهلوهم حتى كادوا يختلطون معهم، عندئذٍ أَطْلَقَتِ النَّارُ عَلَيْهِمْ، مما أسفر عن مقتلٍ مؤلَةٍ لَكِلِيْهِمَا، تَمَخَضَتْ حَسْبَمَا قِيلَ عن مقتل رجلين وإصابة آخر من المضابرة، وثمانية رجال من الجانب الآخر، وقيل ستة، كما قيل أكثر من ثمانية، والله وحده أعلم بمن قُتِلَ، والنتيجة أن كلَّ قَتِيلٍ فِيهَا هو رَشِيدِيٌّ.

هذه الواقعة، غَيَّرَتْ اسمَ - ضُلَيْعِ ضَالٍ - ليصبح بعدها يعرف بـ (بضلِيعِ الرجاجيل) لكثرة ما قُتِلَ بسفحه من الرجال، وهو يَقَعُ على مسافة ثمانية أكيالٍ تقريباً غرباً من قرية (صُفَيْطٍ)^(١). و (ضال) وادٍ تنطلق سيوله من شعاب الضليع، حيث تجتمع بأصله مكونة بذلك وادياً يتجه صوب الشمال حتى يصب في وادي المخروق^(٢).

(١) أنظر عن صُفَيْطٍ المعجم الجغرافي لشمال المملكة لحمد الجاسر ج^٢ ص ٧٨١.
(٢) كذلك أنظر عن وادي المخروق نفس المصدر ج^٢: ص ٩٥٧ في رسم العوشزي

موقف القبيلة من هذا النزاع : مجتمع القبيلة قديماً كان قائماً على أسس من الروابط الاجتماعية التي منها يستمد مصدر قوته، من أهمها الرابطة العصبية العرقية، التي يتمسك بها تمسك المريض برضيعها، وقد اعتاد هذا المجتمع أن يعيش حياة البداوة بحلاوة مذاقها ومرارة نكدها، في ظل أعراف وتقاليد قبلية بحتة، تحكم بين مختلف فئاته إذا ما نشب بينها نزاع، وقل أن تجد فريقاً لا ينجح لحكمها، وإن وُجد أحد لا ينصاع لها، اعتبر خارجاً عن إرادة الكل وقليل من شأنه.

ومن هنا نرى أن المضاربة سكان أبان، وهم جزء من قبيلة بني رشيد اضطروا في يوم ما للجلاء عن ديار قومهم، من جراء فتنة أوجزنا شيئاً من خبرها في هذا البحث، بعدما تملك اليأس نفوسهم، من استحالة حل نزاعهم مع إخوتهم بالنسب والحسب، بالطرق التي تحكم إليها المجتمعات القبلية قديماً.

ولا شك أن الواجب كان يفرض على القبيلة أن تتخذ موقفاً يساعد على فض هذا النزاع، الذي أخذ يضطرم ناراً في جزء منها، لكن موقفاً كهذا غير معلوم، بل يكتنفه كثير من الغموض، إذ لا نجد ما يبين لنا ذلك، من نزاع أو شك أن يبيد حياة عصبية أقلية، لو لم يبادر أفرادها بإبعاد نجعتهم عن أنظار خصومهم بالجلاء المشهور.

لكن الشيء الذي يسترعي انتباه الباحث أن السبعة الجلوية ما برحوا شبراً من الأرض جالين حتى ضمن لهم فرع (الفعور) من المهازمة من بني رشيد ضماناً قاطعاً، بالمحافظة على حياة ذرايعهم من بعدهم ورعايتهم، حتى ينهى الله أمراً كان مفعولاً، فكان لهم ذلك، وجاء الجلاء من بعده، حيث اجتمع شملهم بعد عام من جلوتهم، وهذا يفسر لنا أن الجلاء تم بإيعاز من رؤساء القبيلة وحكائها، فإن كان هذا هو الموقف، وما أظنوه إلا كذلك، فأحسنوا صنعاً.

أما اختيارهم لجبل أبان بالذات ليكون ملجأ لهم، فإن الدخول في مثل ذلك قد يجرنا إلى حديث أطول ويخرجنا عن صلب موضوعنا، ولكن الذي لا جدال فيه

أنه من مآثر الآباء والجدود، كني عبس وفزارة من غطفان، فاتوه وهم أعرف
الناس بمسالكه.

هؤلاء هم السبعة الجلوية:

- ١ - بدوي: وكان عقيدهم، وإليه ينتسب فرع ذوي بدوي من المضابرة.
- ٢ - حنيّة: وإليه ينتسب فرع الحنيّات.
- ٣ - فذغان: ويلقب بشقامي، وإليه ينتسب فرع الشقمان.
- ٤ - ذينخان: وإليه ينتسب فرع الذينخان.
- ٥ - قضان: وإليه ينتسب فرع القضان.
- ٦ - فرخان: ويلقب بالزقع، وإليه ينتسب فرع الزقوع، وهم اليوم في السلام.

٧ - سَلام: وإليه ينتسب فرع السَلام، و - سَلام - هذا فيه وجهة نظر
بين المضابرة أنفسهم، فجمهرتهم يقولون: إن السابع هو (عدوان) بينما يؤكد
الباقون أن سلاماً نفسه إحد السبعة، وأنا لست على بينة من ذلك، لكن المتسبين
اليوم إلى سلام هم أكثر فروع المضابرة عدداً.

وهؤلاء هم الذين لحقوا بهم من نفس لحمهم:

- ١ - عدوان: وإليه ينتسب فرع العدوان، من المضابرة، وهو المقصود بالكلام
تجاه سلام.

- ٢ - زُهَيْمِيل: وإليه ينتسب فرع الزهاميل.
- ٣ - رديفان: وإليه ينتسب فرع الرديفين.
- ٤ - الحرمسان.
- ٥ - السقارية.
- ٦ - الأصاليست.

وبعد هذه اللوحة التاريخية المصغرة عن المضابرة سكان (أبان) فإن لي كلمة
اختتم بها هذا البحث، وهي أن بواعث هذه الفتنة قد ولّت وزالت إلى غير رجعة، ←

مع القراء في أسنلتهم وتعليقاتهم

الصُعَاني من الموهة من مُطير

كتب إلى مجلة «العرب» الأخ إبراهيم بن عبد الرحمن الصعنوني، في إدارة التعليم في بريدة كتابات مطولة حول أصل أسرته التي ينتمي إليها، وهو من الصُعَاني — واحد هم صعنوني.

ويقول الأخ في كتابه: إن الصُعَاني هاؤلاء من فخذ الموهة من عُلّوا من قبيلة مُطير، وقد نزحوا من الأَرطاوية هم وأقارب لهم يدعون النمير، بين الأسرتين قرابة وصلة صهر، لا من حيث النسب، فسكن الصُعَاني في قرية الخضر شرق القصيعة من ملحقات مدينة بُريدة، وأما النمير فسكنوا في النبهانية، ثم نزحوا إلى قرية القرعاء بطريق عيون الجواء.

ومن الصُعَاني أناس في الرياض وفي بريدة، وذكر الأخ الكاتب أنهم لما نزحوا من الأَرطاوية نزلوا قرية طريف الحبل قرب مرآة، وأقاموا فترة، حدث في أثنائها حرب سببت انتقال الصُعَاني وأصهارهم آل غير. وآل غير هاؤلاء من قبيلة عنزة — على ما ذكر الأخ إبراهيم —

وأشار إلى أن لهم آباراً في قرية طريف الحبل معروفة الآن للصُعَاني وللنمير. هكذا ذكر الأخ في كتابه وأشار إلى أن الصعنون أو الصعيني في الرس وفي البدائع وفي عنيزة ليسوا من الصُعَاني الذين ذكر بل من قبيلة أخرى. هذا ملخص ما ذكر الأخ إبراهيم في كتابه.

→ فأصبحت الروابط الأسرية من جهة الخؤولة وغيرها بين من كانوا قطبي رحاها بالأمس، هي اليوم كالرابطة بين أوردة الشرايين وقلب الإنسان.

الرياض: عطا الله بن ضيف الله الرشدي

أما قرية طريف الحبل التي أشار إليها فأنا لا أعرف قرية بهذا الاسم. وطريف الحبل ليس قرية - على ما أعلم - بل كتيب من الرمل تمتد شرق الوشم ويعرف قديماً باسم رمل الرغام.

كما ذكر الأخ إبراهيم أن انتقال أسرهم من الأرتاوية إلى الخضر في عهد جده عبد المحسن المرزوق المريزق من حوالي ١٣٠ سنة.

إلا أن الأرتاوية لم تنشأ إلا في سنة ١٣٣٦ هـ على وجه التقريب من أوائل هجر الإخوان التي أنشئت في عهد الملك عبد العزيز - رحمه الله - فعهد إنشائها لم يمض له أكثر من ٧٠ عاماً.

آل سلطان الحرقان - من عبدة

كتب الأخ سيف بن سعد مدير العلاقات العامة في إمارة عسير إلى مجلة «العرب» ملاحظاً عدم ذكر عشيرة آل سلطان الحرقان من عبدة في كتاب «معجم قبائل المملكة». وأشار الأخ إلى أن لشيخ هذه العشيرة سيف بن نورة من الأثر الحميد عند بدء حكم الملك عبد العزيز - رحمه الله - حيث جمع قبائل عبدة وغيرها من قحطان بموضع يُدعى الآن روضة نورة في وادي الشرف أحد روافد وادي تثليث المشهور، ويسمى ذلك الشرف، شرف الحرقان. وقد سارت تلك العشائر بقيادة ابن راشد ومعهم من مشايخ قبائل قحطان ابن شفلوت وابن نورة إلى بدر الجنوب، وبعد معركة طاحنة تمكن عوض بن سيف بن نورة وأحد قومه وهو سيف بن غانم بن جريدي من آل سلطان من حفر أساس القلعة التي تحصن فيها العدو في بدر، ففتحت وتم الاستيلاء عليها.

هذا أحد المواقف لعشيرة ابن نورة شيخ آل سلطان الحرقان من عبدة. هذا ملخص ما كتب به الأخ الكريم أحد أفراد تلك العشيرة، وكان من الأفضل لو فصل لنا جميع أفخاذ قبيلة عبدة بما فيهم الحرقان وهل الحرقان يدعون آل سلطان أم هما عشيرتان؟، أما الإشارة إلى ما لشيخ القبائل من مآثر حميدة فمرجع ذلك إلى كتب التاريخ، أما كتب الأنساب فهي لا تستقصي ولا تتوسع في مثل هذه الأمور وشكراً للكاتب الكريم.

■ معجم المطبوعات العربية - المملكة العربية السعودية :

وصدر الجزء الأول من هذا الكتاب الذي يعتبر بحق دراسة وافية لجميع مظاهر الثقافة في المملكة العربية السعودية منذ منتصف العقد الخامس من القرن الماضي إلى منتصف العقد الأول من قرننا الحالي، تأليف أستاذنا الجليل الدكتور علي جواد الطاهر، وماذا يقول المتحدث عن هذا الكتاب؟ أو ماذا يصف به مؤلفه وهو في علمه وسعة اطلاعه وعمق بحثه ممن لا يزداد بالوصف تعريفاً؟! وما يمكن أن يقال عن هذا الكتاب انه سجل حافل تتبع مؤلفه منابع الثقافة على مختلف

القُبعة لا (الْقَيْصَة) من حرب

كتب إلي الأخ الكريم راضي بن عياد القبعي الحربي من الفوارة في القصيم كتاباً بتاريخ ١٥/١٠/١٤٠٥ يلفت النظر إلى أنه وقع في كتاب «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» - ص ٧٥١ - السطر السابع في ذكر قبيلة مزينة في فرع بني مسعود، ما هذا نصه:

العُونة: (عُونِي) - الْقَيْصَة (قَيْصِي).

والصواب: العونة: (عُونِي) - القُبعة (قُبَعِي).

وشكراً للأخ الكريم.

أما الإستيضاح عن الكتب التي تبحث في نسب قبيلة حرب وتاريخها فمنها: -

١ - كتاب «نسب قبيلة حرب» للأستاذ عاتق بن غيث البلادي وهو مطبوع.

٢ - وفي كتاب «الإكليل» - ج ١ - للهمداني صاحب «صفة جزيرة العرب» بحث مفصل عن انتقال قبيلة حرب من اليمن وانتشارها بين مكة والمدينة ومحاربتها لقبائل تلك المنطقة حتى اخضعتها.

أنواعها في هذه البلاد، فسجلها في خلال تلك الفترة، ولم يقف عند حدّ التسجيل، بل أضاف إلى ذلك ومضاتٍ فكرية تلقي الأضواء على كثير من جوانب تلك الثقافة، وتوضح بعض آثار الالتقاءات الفكرية، ومنابعها القديمة والحديثة.

وبالإجمال فهذا الكتاب يعتبر بالنسبة لموضوعه أوفى مرجع وأوثق، كُتِبَ بأسلوب علمي، بعيد كل البعد عن أي مؤثر من المؤثرات التي اعتاد قراء عصرنا أن يجدوا منها ما يصدف عن الرجوع إلى كثير من مؤلفات هذا العصر.

لقد صدر الجزء الأول من الكتاب بحوي مقدمة ضافية تقع في ٢٢٢ صفحة، عرض فيها الأستاذ الدكتور بعد سرد الرموز والمختصرات أنه في ١٣٨٣/٥/٢١ هـ نزل الرياض متعاقداً للتدريس بكلية الآداب من جامعتها، وكان لا بُدَّ من أن يُلمَّ بشؤون الأدب في هذه البلاد، واسترسل في عرض الطريقة التي سار عليها، ثم أفضت به إلى أن يتوسع في هذا السير ليبرز نتيجته في معجم كامل يحوي نتاج الأدباء والمثقفين والعلماء في فترة حدد أولها من سنة ١٣٤٤ هـ، ثم سار يزيد في نهايتها شيئاً فشيئاً، وأوفى الكلام عن ذلك مستعرضاً أهم المؤلفات التي رجع إليها، وكما ورد في الأثر: طالبان منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال، وهكذا سار الأستاذ الدكتور في طريقته في تأليف هذا الكتاب الذي صدر جزؤه الأول يحوي بعد المقدمة المعجم المرتب على الحروف من إبراهيم إلى عبد الفتاح.

ووقع في ٦١٨ صفحة بطباعة حسنة ساعدت جامعة بغداد على نشره وطبع في (مطبعة اشبيلية الحديثة)، وهو من منشورات المكتبة العالمية في بغداد، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت.

□ محمد حسن عواد شاعراً :

يسر المعني بالنشاط الثقافي في بلادنا أثناء استعراض حركته أن آثاره لا تقتصر على الأدباء والباحثين وحدهم، بل تشاركهم في ذلك أخواتهم من الكاتبات والباحثات، ومن - والله الحمد - قد أصبحن من الكثرة بالدرجة التي تعجب وتسُرُّ. ومن آخر ما وقع في يدي من الدراسات الحديثة، ما كتبه السيدة الفاضلة آمنة

عبد الحميد عقاد عن « محمد حسن عواد شاعراً » ، وهو كتاب جاء في مقدمته أنه أُعيدَ استكمالاً لمتطلبات درجة (الماجستير) في قسم اللغة العربية – كلية الآداب جامعة الملك سعود – أثناء العام الدراسي (١٤٠١/١٤٠٢) ، مع الإشارة إلى أن هذه الدراسة نشرت بدون تعديل أو حذفٍ أو إضافة .

وبمطالعة أبحاث الكتاب وتصفح صفحاته ، يبدو أثر الجهد الذي بُذل في إعداده ، وهو يحوي أربعة أبواب :

الأول : حياة العواد .

الثاني : شعر العواد وآراؤه النقدية .

الثالث : عالم العواد (أي الموضوعات التي طرقها كثيراً في شعره) .

الرابع : الصياغة الفنية .

وهذه الدراسة تقع في ٤٦٤ صفحة بطباعة خستة (بمطابع دارالمدني في جدة) وصدر عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م)

مركز بحوث وتطوير علوم إلكترونية

□ الخطيئة والتكفير:

والحديث عن الأستاذ محمد حسن عواد يجر إلى ذكر معاصره الأستاذ حمزة شحاتة، إذ مضى وقت كان لا يُذكرُ اسم أحدهما إلا مقروناً باسم الثاني، والأستاذ حمزة شحاتة تصدى لدراسة شعره باحثٌ سار في دراسته على أسس حديثة، ولم تقف تلك الدراسة عما للأستاذ حمزة شحاتة من شعر، بل شملت كثيراً من أفكاره التي عبر عنها نثراً.

هذا الباحث الذي عُني بأدب الأستاذ حمزة شحاتة هو الدكتور عبد الله بن محمد الغدامي، واسم كتابه الذي حوي تلك الدراسة «الخطيئة والتكفير» – من البنيوية إلى التشريفية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر –

والواقع أن الدكتور الغدامي سلك في دراسته هذه مناهج قد لا تكون غريبة ولا جديدة بالنسبة لذوي الدراسات العميقة في الأدب، إلا أنها بمقارنتها بما اشتهر

من الدراسات الأدبية تعتبر على درجة من الجدة والعمق .
وتقع هذه الدراسة في ستة فصول، أولها: البحث عن نموذج، والثاني: فلسفة
النموذج، والثالث: آدم حياً، آدم خطاءً، والرابع: انفجار الصمت (تفسير
النص)، والخامس: الموأل الحجازي، والسادس: الصوت المبحوح، ثم مراجع
الدراسة التي بلغت ٨٥ مرجعاً منها ٣٣ بغير اللغة العربية ثم فهرس مجمل مرتب
على الحروف لمواد الكتاب الذي وقع في ٣٨٢ صفحة، مطبوعاً بمطابع (دار البلاد)
في جدة بطباعة حسنة وصدر عام ١٤٠٥، وقام بنشره النادي الأدبي الثقافي في
جدة فكان الحلقة ٢٧ من منشوراته.

□ الحجاز واليمن في العصر الأيوبي:

وقامت «تهامة» للنشر بنشر كتاب «الحجاز واليمن في العصر الأيوبي». للدكتور
جميل حرب محمود حسين، فكان الحلقة الثلاثين من سلسلة الكتاب الجامعي
الذي تصدره «تهامة».

والمؤلف الفاضل أقام في الحجاز أكثر من سبع سنين متنقلاً بين مدنها الثلاث،
كما زار صنعاء وبعض مدن اليمن مع تروده على المكتبات المشهورة في القاهرة
للبحث عن المراجع التي استقى منها معلومات كتابه الذي تقدم به لنيل درجة
(الدكتوراه) وهو يحوي خلاصة مستقاة مما رجع إليه من مختلف المصادر التي بلغ
تعدادها في آخر الكتاب أكثر من ١٨٠ مرجعاً - عن الموضوع الذي خصص له.

ويقع الكتاب في أربعة أبواب:

الباب الأول: الحياة السياسية في الحجاز واليمن.

والباب الثاني: الحياة الاقتصادية في القطرين المذكورين.

والباب الثالث: الحياة الدينية والفكرية فيها.

والباب الرابع: عن الحياة الاجتماعية، ثم الخاتمة والملاحق، فقائمة المصادر
والمراجع.

ويقع الكتاب في ٢٨١ صفحة مطبوعاً بـ (مطابع السحر) بمدينة جدة.